الأدب العالمي للناشئين

بيتر بان

جي إم باري

بیتر بان

بيتر بان

تأليف
جي إم باري

ترجمة
كوثر محمود محمد

هنـــداوي

بيتر بان

جي إم باري

Peter Pan

J. M. Barrie

الطبعة الثانية ٢٠١٣م
رقم إيداع ٧٣٧٢ / ٢٠١١
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

باري، جي إم
بيتر بان/جي إم باري.
تدمك: ١ ٨٧ ٦٢٦٣ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص الإنجليزية
٢- قصص الأطفال

أ- العنوان

٨٢٣

رسم الغلاف: إيمان إبراهيم، تصميم الغلاف: إيهاب سالم.

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية، ويشمل ذلك التصوير الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة أو استخدام أية وسيلة نشر أخرى، بما في ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذن خطي من الناشر.

Arabic Language Translation Copyright © 2011–2013 Hindawi Foundation for Education and Culture.
Peter Pan
All rights reserved.

المحتويات

١- نبوءة خاطئة	٧
٢- الآن يا بيتر! الآن!	١١
٣- قبلات من جوز البلوط وجنيات غيورات	١٥
٤- الطيور تغادر عشها	١٩
٥- رحلة جوية طويلة	٢٣
٦- الحياة تدب في الجزيرة	٢٧
٧- طائر الويندي	٣١
٨- أسوأ من الليل	٣٧
٩- بحيرة حوريات الماء	٤١
١٠- طائر نيفر	٤٧
١١- الأسرة السعيدة	٥١
١٢- هوك في غاية السعادة	٥٧
١٣- خطر وشيك	٦١
١٤- سفينة القراصنة	٦٥
١٥- هذه المرة إما هوك أو أنا	٦٩
١٦- العودة إلى المنزل	٧٥
١٧- النضج والوداع	٧٩

الفصل الأول

نبوءة خاطئة

كل الأطفال يكبرون، عدا واحدًا.

تعلمت ويندي هذا عندما كانت تلهو في حديقة المنزل ذات يوم وهي في الثانية من العمر. أعطت والدتَها السيدة دارلينج يوم ذاك زهرة، فاحتضنتها الأم وقالت: «آه! لم لا تظلين هكذا إلى الآبد؟»

لم تدرك ويندي قبل هذا اليوم أنها ستتغير.

كان لها أخوان يصغرانها: مايكل وجون، وهما بدورهما كانا يكبران.

اعتادت السيدة دارلينج المكوث في المنزل مع أطفالها، فيما كان زوجها السيد دارلينج يذهب إلى عمله الذي تاجر فيه بالأسهم. لم تجلب الأسهم له على الدوام ربحًا، لذا كان على الأسرة أن تقتصد في العيش وتدخر.

عملت لدى الأسرة حاضنةُ أطفال؛ فهذا كان دأب سائر أسر الحي، والسيد دارلينج كان شديد الحرص على مواكبة مستوى معيشة جيرانه، إلا أن أسرة دارلينج كانت فقيرة، لهذا كانت حاضنة الأطفال التي عملت لديهم في الواقع ليست إلا كلبة ضخمة تدعى نانا.

أقل ما توصف به نانا هو أنها كانت حاضنة أطفال عجيبة؛ فهي لم تؤمن بكل ما يزعم عن الجراثيم من «بدع». كانت أحيانًا تلعق أقدام الأطفال برقة بعدما تلعق قدميها، وقد أُحرج السيد دارلينج من وجودها في المنزل، لذا كان يقسو عليها أحيانًا، لكن لم يكن ينبغي له هذا؛ فقد كانت في الواقع لطيفة؛ فعندما حاد الأطفال مثلًا عن طريقهم إلى المدرسة أو تلكئوا، دفعتهم برأسها الكبير للعودة إلى الطريق، ولم تنس قط أن تجلب لجون زي لعب كرة القدم، وتعودت أن تحمل في فمها بدلًا من العظم شمسية تحسبًا للمطر، ففي إنجلترا يهطل المطر كثيرًا.

كانت أسرة دارلينج بوجه عام أسرةً إنجليزية عادية سعيدة، إلى أن جاءها ذات يوم صبي يدعى بيتر بان.

لم تسمع السيدة دارلينج قط ببيتر بان، إلى أن تناهى إلى سمعها اسمه ذات يوم، حين كانت تنظف عقول أطفالها؛ فأغلب الأمهات الصالحات ينظفن عقول أطفالهن بعد أن يناموا، كما لو أن العقول كالأدراج، وذكريات الأطفال كالجوارب والملابس التي يجب طيها بعناية ثم وضعها في مكانها.

آه! كم مرة ارتفع فيها حاجبَا السيدة دارلينج عجبًا وهي تتساءل من أين أتت الأفكار الجميلة التي تجدها في عقول أطفالها. تلك الأفكار كانت تطويها بحنان وتتركها على أسرة الأطفال كي تكون أول ما يصادفهم صباحًا، لكنها في أحيان أخرى عثرت على أفكار سيئة، شريرة، وتلك كانت تنفضها عن رءوسهم وتخفيها سريعًا تحت الأسرة.

عقول الأطفال هي عالم عجيب، إن حاول شخص أن يرسم له خريطة فسيجدها ممتلئة بالتعاريج والمنحنيات، لكنها ستقودك في نهاية الأمر إلى «نيفرلاند».

تسألني ما هي «نيفرلاند»؟ إنها جزيرة تقع في عقل كل طفل، مكان يقصده الأطفال في خيالهم بالأساس، إلا إن حظوا طبعًا بدعوة من مرشد بارز بالجزيرة.

لكن نيفرلاند في عقل كل طفل تختلف اختلافًا طفيفًا عنها في عقول الأطفال الآخرين. هناك نيفرلاند ملونة، ونيفرلاند بالأبيض والأسود، ونيفرلاند بشعاب مرجانية منتشرة بغير نظام، بها قواربُ محطمة، وكهوفٌ مهجورة، وأكواخ صغيرة على الشواطئ، ونيفرلاند بمسنات حدباوات، وسلاحفَ تضع البيض، وأقزام تهوى الحياكة، ونيفرلاند عن أول يوم كابوسي في المدرسة، واختبارات النحو المفاجئة التي لم تستذكر لها، ومحاولتك عدم الضحك في الكنيسة، والنقود التي تهديها جنية الأسنان للأطفال، وحلوى البودينج والشوكولاتة.

فليس هناك قواعد للصورة التي يجب أن تكون عليها نيفرلاند. إن نيفرلاند في عقل جون تحوي بحيرة صغيرة هادئة ترفرف فوقها طيور النحام الوردية، لكنها في عقل مايكل — الذي يحاول جاهدًا أن يكون كأخيه الأكبر — تحوي طائر نحام ورديًّا تطير فوقه بحيرة، أما هي في عقل ويندي فبها ذئب أليف وقارب.

جزيرة نيفرلاند لا تظهر على أي خريطة؛ لأنها لا تلزم مكانها. إن استطعت العثور على نيفرلاند، فستجد قضاء الوقت فيها ممتعًا جدًّا نهارًا، عندما تكون شمسها مشرقة، لكنها تتحول إلى مكان مخيف قبل أن يخلد الأطفال إلى النوم بدقيقتين؛ لهذا ابتكرت مصابيح غرف الأطفال الليلية.

لم تعلم السيدة دارلينج شيئًا عن نيفرلاند، أو هي بالأحرى ألفت الجزيرة في طفولتها، لكن نسيتها منذ زمن طويل؛ لهذا شعرت بالحيرة الشديدة عندما عثرت عليها أثناء تجوالها في عقول أطفالها.

كانت هناك أمور أخرى أثارت حيرتها. أولًا، هناك هذا الاسم الذي ظل يتردد مرة بعد مرة، بصدى أعلى من أي كلمة أخرى في عقول الأطفال، لا سيما في عقل ويندي، إنه بيتر.

سألت السيدة دارلينج ويندي ذات يوم: «من بيتر هذا الذي تتحدثين عنه؟ أهو صديق لك؟»

فقالت ويندي: «في الواقع ... ليس دائمًا.»

– «أنت تعلمين أنني أرفض أن تتحدثي إلى غرباء؟»

– «لكنه ليس غريبًا يا أماه. ألا تذكرينه؟»

– «لم أسمع به قط!»

أصرت السيدة دارلينج على أنها لا تعرف بيتر، لكن ما إن قالت هذا حتى انتبهت إلى أن هذا قد لا يكون صحيحًا تمامًا؛ هي لا تذكره أو تذكر لقاءها به؛ فسنها كان كبيرًا إلى حد يمنعها من تذكر هذا، لكنها في قرارة نفسها ظلت تذكر قصة عن صبي يصاحب الأطفال في مخيلتهم حتى لا يشعرون بالخوف، وكانت موقنة أنها آمنت به عندما كانت في عمر ويندي.

فقالت: «حسنًا، حتى لو كنت أذكره، أنا موقنة أنه صار الآن كبيرًا مثلي.» ثم أودعت ويندي الفراش لتنام الليل.

لكن بعدئذ في وقت متأخر من ذاك اليوم، قالت لزوجها: «هذا المدعو بيتر يقلقني.»

فقال لها: «لا تقلقي، إنه على الأرجح هراء أدخلته عديمة النفع نانا في رءوسهم، سينسونه، سترين.»

لكن السيد دارلينج أخطأ التنبؤ.

الفصل الثاني

الآن يا بيتر! الآن!

كثيرًا ما يجد الأطفال أغرب الأمور عادية. قد يخبرونك على سبيل المثال بلا اكتراث بأنهم التقوا شبحًا الأربعاء الماضي عندما كانوا يلعبون، ولعبوا معه لعبة المساكة على زلاجاتهم. كان الأمر كهذا بالضبط عندما باحت ويندي لوالدتها بأمر أقلقها قلقًا شديدًا صباح يوم ما؛ عثرت السيدة دارلينج أثناء تنظيف حجرة نوم الأطفال وهم نائمون على بعض أوراق الأشجار على الأرض.

فسألت ويندي عنها، فلم تجب ويندي إلا أنها قالت: «آه، لا بد أن بيتر تركها.»

فسألت السيدة دارلينج والقلق يساورها: «ماذا تعنين؟»

فأجابت ويندي التي كانت فتاة تعنى بشدة بالنظام: «إنه مهمل للغاية.» ثم أضافت متنهدة أن بيتر كثيرًا ما يأتي إلى حجرة النوم ليلًا ويجلس على طرف فراشها ليعزف لها المزمار.

فقالت السيدة دارلينج محاولةً إقناعها: «عزيزتي، باب المنزل الأمامي يكون مغلقًا ليلًا، ولا يسع أحدًا الدخول.»

– «إنه يأتي عبر النافذة.»

– «ليس بوسعه هذا، نحن على ارتفاع ثلاثة طوابق من الأرض! لِم لَم تخبريني بهذا من قبل؟»

– «شعرت بالجوع فنسيت.» وانتابها شعور بالجوع الشديد مجددًا فذهبت تبحث عما تأكله، فيما مكثت السيدة دارلينج خلفها وهي لا تزال مقطبة الوجه بسبب أوراق الأشجار. أكثر ما أخافها هو أنها كانت شبه موقنة من أن تلك الأوراق أتت من شجرة لا تنمو في إنجلترا، ففتشت الحجرة عن المزيد، لكن لم تعثر على شيء.

أكد لها السيد دارلينج عندما أطلعته على الأمر قائلًا: «أنت تتوهمين مشكلة لا وجود لها، الآن عودي إلى الفراش.»

فقالت له: «أعتقد أنك على حق.» إلا أنه أخطأ ....

أودعت السيدة دارلينج الأطفال الفراش مساء اليوم التالي، ثم هبطت درج المنزل لتجلس بالقرب من نيران المدفأة وراحت في النوم.

وغاصت في الأحلام على الفور تقريبًا لتحلم بأن جزيرة نيفرلاند جرفها التيار إلى مكان قريب جدًّا من شاطئ عليه أطفالها — ويندي وجون ومايكل — وبأن فتى غريبًا قفز إلى ماء البحر سابحًا نحوهم، وهم يلوحون له بأيديهم بسعادة.

ربما كان هذا مجرد حلم سخيف، إلا أنه لم يكن كذلك؛ فأعلى الدرج، انفتحت نافذة حجرة الأطفال، وطار بالفعل فتى إلى الغرفة، وقع على الأرض ودخلت معه كرة من الضوء لا يزيد حجمها عن حجم قبضة، أخذت تندفع سريعًا في أرجاء الغرفة كالسهم.

فهبت السيدة دارلينج مستيقظة من نومها فزعة، مدركةً على الفور أن الفتى الذي كان يسبح في حلمها هو بيتر بان، فهرعت إلى الطابق العلوي، وفتحت باب حجرة الأطفال على مصراعيه، لتجد بيتر بان.

كان يرتدي زيًّا من أوراق الأشجار — من أوراق الشجر العجيبة ذاتها التي خلفها في زيارته السابقة — لكن الأغرب هو أنه بدا طفلًا مع أنه كان يجب أن يكون في عمر السيدة دارلينج على الأقل.

كشر بيتر عن أسنانه — التي كانت أسنان طفل — لما رأى السيدة دارلينج، وزأر ....

فصرخت هي، ووصلت نانا إلى الحجرة في جزء من الثانية، وزأرت بدورها واندفعت بقوة نحو بيتر، فتفاداها وقفز عبر النافذة.

وصرخت السيدة دارلينج مجددًا؛ لأنها مع كل هذا لم ترد الفتى أن يلقى حتفه، لكنها عندما نظرت عبر النافذة لم تجد جسدًا محطمًا، ولما نظرت إلى أعلى رأت شيئًا يشبه الشهاب يمضي مسرعًا.

استدارت، فوجدت نانا تحمل شيئًا في فمها. كان هذا ظل بيتر بان! أمسكته نانا بأسنانها قبل أن يقفز بيتر فانفصل عنه مصدرًا طقطقة.

أرادت نانا أن تعلق ظل بيتر على نافذة الحجرة حتى يعود ويأخذه دون أن يزعج الأطفال، لكن السيدة دارلينج رأت أنه سيبدو وكأنه ثوب مغسول تُرك ليجف، وسينزعج السيد دارلينج إن رأى الجيران هذا.

لذا قررت أن تحشر الظل في قاع أحد الأدراج، فيظل مخبئًا وكأنه فكرة شريرة وجدتها في عقل أحد أطفالها.

قال السيد دارلينج عندما حكت له زوجته عما حدث: «تلك الكلبة المقيتة! لا يجوز أن تُترك لتنزع عن الناس ظلالهم في كل مكان، وإلا فسيقاضوننا!»

كم كانت نانا مسكينة! وكم كان السيد دارلينج مسكين! كان يعلم أنه يسيء معاملتها للغاية، ويظلمها، لكن هذا لأنه شعر بالإحباط والغيرة؛ لأن تجارة الآخرين في الأسهم كانت أكثر ازدهارًا من تجارته، ولأن الأطفال أحبوا نانا حبًّا جمًّا، لعله فاق حبهم له، وزاد الأمر سوءًا أن نانا لامسته أمس فخلفت شعرًا أبيضَ على معطفه كله.

من هنا صاح السيد دارلينج: «اذهبي إلى بيت الكلاب حيث تنتمين!»

فهمست له السيدة دارلينج قائلة: «جورج! تذكر ما أخبرتك به عن هذا الصبي. ماذا لو أتى مجددًا ولم تكن نانا هنا لحراسة الأطفال؟»

لكن السيد دارلينج أبى أن يصغي إلى زوجته، وأصر على أن يظهر للجميع أنه صاحب القرار، فغادرت نانا المنزل.

سمع الجميع نانا في فناء المنزل بالطابق السفلي تنبح مساء ذلك اليوم، عندما كانت السيدة دارلينج تودع الأطفال الفراش، وتطفئ لهم المصابيح الليلية.

قال جون: «إنها تحتج وحسب لأنها مقيدة.»

لكن ويندي كانت أكثر حكمةً من جون، فقالت: «لا، بل هي تنبح هكذا عندما تشم رائحة الخطر.»

هنا ارتجفت السيدة دارلينج. كانت هناك الملايين من النجوم خارج المنزل، بدا بعضها وكأنه يحوم حول المنزل، يحاول دخوله ....

كم تمنت السيدة دارلينج ألا يكون عليها هي وزوجها الذهاب إلى حفل عشاء ذاك اليوم!

فقال لها مايكل: «لا تقلقي يا أماه، لا يمكن لشيء أن يؤذينا طالما أن مصابيحنا الليلية مضاءة، أليس كذلك؟»

كانت السيدة دارلينج قد أخبرت أطفالها بذلك من قبل، لذا لم يكن بمقدورها أن تتراجع عما قالته الآن؛ فقالت لهم بنبرة مطمئنة: «هذا صحيح، المصابيح الليلية هي الأعين التي تتركها الأم ليلًا لتحرس أطفالها.»

بالإضافة إلى ذلك، حدثت السيدة دارلينج نفسها بأنها ستكون قريبة جدًّا من المنزل؛ لن تفصل بينها وبينه سوى بضعة منازل؛ فما الذي يمكنه أن يحدث؟

بعد بضعة دقائق كان السيد والسيدة دارلينج خارج المنزل، يسيران بتمهل وذراعاهما متشابكان، لكن كان هناك ما يراقبهما؛ كانت النجوم تتلصص. كل النجوم العجائز كانت نائمة، أصابها الضجر، أما النجوم الصغيرة فقد انتابها الفضول، وملأها العجب وأخذت تتلألأ.

ما أثار اهتمام تلك النجوم في المقام الأول لم يكن بيتر الذي هوى التسلل في غفلتها ومحاولة خداعها؛ كانت بوجه عام تحب المرح، وبيتر يعني المرح! لذا قررت أن تساعده الليلة؛ وفور وصول السيد والسيدة دارلينج إلى منزل جيرانهما بأمان ثارت تلك النجوم في السماء، وصاحت معًا: «الآن يا بيتر! الآن!»

الفصل الثالث

قبلات من جوز البلوط وجنيات غيورات

كانت مصابيح حجرة الأطفال الليلية ما تزال موقدة عندما غادر السيد والسيدة دارلينج المنزل، لكن حتى المصابيح يدركها التعب في لحظة ما؛ فكما قد تتخيل، التوهج والإضاءة بقوة طوال الوقت يتطلبان عناءً كبيرًا.

تثاءب مصباح ويندي أولًا وانطفأ، ولأن التثاؤب مُعد، سرعان ما تثاءبت المصابيح الأخرى، فأطفأها زفير تثاؤبها قبل أن تغلق فمها.

مع هذا ظلت حجرة الأطفال مضاءة؛ فقد أتى ضوء متقطع من إبريق ماء، حوى بداخله جنية لا يزيد حجمها عن حجم كف اليد، اسمها تينكر بيل. كانت تبحث عن ظل بيتر في الإبريق.

ثم ظهر بيتر، وسأل بصوت خفيض: «تينك، هل ظلي في هذا الإبريق؟»

فبرزت تينك من الإبريق وأجابت: «لا.»

لكن صوتها لما أجابت بدا وكأنه جرس؛ فقد تحدثت بلغة جنيات غريبة، لا يفهمها إلا بيتر وأصدقاؤه.

أخبرت تينك بيتر بأنها لمحت لتوها ظله في خزانة الأدراج.

ففتح بيتر الأدراج، وكوم ملابس الأطفال على الأرض، وعثر على ظله، فانتزعه وحاول أن يرتديه بسرعة وكأنه بنطال، لكن مقاس الظل لم يناسبه؛ فحاول ارتداءه كقبعة، لكن الظل ظل يرتد عن رأسه وكأنه لا يود أن يعود إليه.

فجلس بيتر على الأرض وبدأ يبكي، وأيقظ بكاؤه ويندي، فنهضت وجلست على الفراش.

وسألت بيتر في أدب: «المعذرة، من أنت؟»

– «أنا بيتر بان. من أنت؟»

– «اسمي ويندي دارلينج. أنا أعيش هنا.»

فقال بيتر: «أما أنا فأسكن آخر اليمنة، بعد آخر ما ينتهي إليه العالم قبل حلول الصباح.»

– «هذا عنوان مضحك.»

فشعر بيتر بالإحراج وقال منزعجًا: «لا أرى ما يجعله كذلك.»

– «حسنًا، ما الذي يكتبه الناس على الظرف عندما يرسلون إليك خطابًا؟»

فأجاب بيتر في صوت خفيض: «لا يرسل أحد إليَّ خطابًا.» ولم يعد يشعر بالحرج وحسب، بل انتابه شعور بالحزن أيضًا؛ لأنه لا يحصل على خطابات.

فسألته ويندي بصوت خفيض: «وعندما يرسل أحد إلى والدتك خطابًا؟»

فأجابها بيتر: «ليس لدي أم.» لقد أزعجه عنوان منزله المضحك وعدم حصوله على خطابات، أما الأمهات فشعر بأنه يغالى في تقديرهن.

لكن ويندي رأت أنه من المحزن أن يكون عنوان المرء مضحكًا وألا تكون لديه أم أو خطابات.

فقالت له: «مسكين يا بيتر! لا عجب في أنك تبكي.» ونهضت من فراشها وركضت إليه لتحتضنه.

فقال لها: «لم أبك لأنني لا أجد أمًّا. كنت أبكي لأنني لا أستطيع ارتداء ظلي. هل لديك صمغ؟»

فابتسمت ويندي؛ يا له من تفكير جدير بالصبيان!

فقالت له: «لا يمكنك أن تلصقه بالصمغ أيها الساذج، يجب أن يلتصق بك بخيط، سأخيطه لك.»

فأخرجت عدة الخياطة التي تملكها شاعرة بأهميتها البالغة، وفي غضون دقائق عاد الظل إلى حيث ينتمي، ولو أنه كان مجعدًا بعض الشيء؛ فتساءلت ويندي قليلًا هل كان عليها أن تكويه أولًا.

صاح بيتر وهو يدور أمام مرآة الغرفة: «رائع، انظري إلي وإلى ظلي الرائع.»

فقالت له ويندي: «إن شكرتني فسيكون هذا لطيف منك.»

فقال بيتر: «علام أشكرك؟»

فاستشاطت ويندي غضبًا، حتى إنها عادت إلى فراشها وغطت وجهها بأغطية الفراش، ورفضت أن تزيلها عنها إلى أن يعتذر بيتر.

ثم قالت له، وهي توليه خدها: «سأسامحك إن أعطيتني قبلة»، إذ كانت قد بلغت السن الذي تفكر فيه الفتيات في القبلات.

تردد بيتر وارتبك، ثم وضع في يدها زرًّا على شكل جوزة البلوط؛ فلما أدركت ويندي أنه لم يبلغ تلك السن بعد، ولم تبغ إحراجه، شكرته بأدب، وأخبرته بأنها ستعلق قبلته على خيط وترتديها حول عنقها.

ثم سألته: «كم عمرك؟»

فأجابها: «لا أدري؛ فقد هربت من بيتي في اليوم عينه الذي ولدت فيه، بعدما سمعت والدي يتحدثان عما سأصير إليه عندما أكبر.»

– «لماذا؟»

فأجابها ببساطة: «لأنني لم أرد أن أكبر» وأضاف: «اليوم أنا أعيش مع الصبية التائهين والجنيات.»

فتمتمت ويندي وقد التمعت عيناها: «جنيات؟» وأخذت تسأل بيتر عن كل ما يتبادر إلى ذهنها عن تلك الكائنات.

فقال بيتر شارحًا لها: «عندما يضحك الطفل للمرة الأولى، تتكسر ضحكته وتتجزأ إلى مليون قطعة، وكل قطعة تتحول إلى جنية.»

الحديث عن الجنيات ذكر بيتر فجأة بتينك التي لزمت الصمت تمامًا؛ فنهض يبحث عنها.

فهبت ويندي على قدميها في حماس وقالت: «أتعني أن هناك جنية بالفعل في هذه الغرفة؟»

أنصت الاثنان، لكن ويندي لم تسمع إلا رنين جرس.

فقال لها بيتر مقطبًا: «آه، هذه تينك، هذه هي لغة الجنيات، يبدو أن الصوت قادم من خزانة الأدراج.»

ثم أدرك أنه احتبس تينكر بيل في درج الثياب، فانفجر ضاحكًا؛ لا بد أن تينك طارت إلى الدرج، عندما كان يبحث عن ظله. كم صرخت عندما أخرجها من محبسها.

قال بيتر وهو يشاهدها وهي تطير في أرجاء الغرفة مستشيطة غضبًا: «تينك، يا له من أسلوب!»

فسألت ويندي وهي ترى شيئًا غير واضح المعالم يتحرك بغضب: «ما الذي تقوله؟ كم أتمنى أن تقف ثابتة كي أراها! هل يمكن أن تصبح جنيتي؟»

فأصدرت تينك رنينًا مدويًا غاضبًا ردًّا على هذا.

فقال بيتر: «إنها تقول إنك فتاة ضخمة قبيحة ولا يمكن أن تكون جنية لك، لأنها جنيتي.»

فتمتمت ويندي: «حسنًا، لكنها غير مهذبة.»

فكان على بيتر أن يتفق معها.

لم تتجاوب تينكر بيل مع ويندي فالتفتت ويندي مجددًا إلى بيتر، إذ كانت لديها الكثير من الأسئلة له.

فأخبرها بيتر عن الصبية التائهين، وهم صبية وقعوا من عربة الأطفال التي حملتهم عندما كانوا صغارًا، ولم يرغب فيهم أحد.

قال بيتر: «أنا قائدهم.»

فقالت ويندي: «كم هذا مشوق، لكن ألا توجد فتيات على الجزيرة؟»

فأجابها بيتر: «لا، فالفتيات أذكى من أن يقعن من عربات الأطفال.»

فقالت ويندي وقد تورد وجهها: «ما ألطف أن تقول هذا!»

ثم صرخت فجأة؛ إذ شعرت بأن شيئًا ما جذب شعرها.

فقال بيتر: «لا شك أن هذه تينك. إنها حتمًا شقية اليوم.»

أخبرت تينكر بيل بيتر أنها لن تكف عن شقاوتها طالما أنه يلاطف ويندي. بدا أن الجنية الصغيرة شأنها شأن السيد دارلينج تشعر بالغيرة بشدة.

الفصل الرابع

الطيور تغادر عشها

سألت ويندي: «لماذا أتيت إلى حجرة نومنا يا بيتر؟»

فأجابها: «أتيت لأستمع إلى القصة التي تقصها والدتك.»

شعرت ويندي ببعض الإحباط لأنه لم يأت من أجلها، لكنها سألت: «أي قصة؟»

فأجاب: «قصة السيدة التي فقدت حذاءها الزجاجي. كان علي أن أرحل، لذا فاتني الاستماع إلى نهاية القصة.»

فقالت ويندي: «تقصد قصة سندريلا. أستطيع أن أخبرك كيف تنتهي. الأمير يعثر على سندريلا، ثم يعيشان في سعادة إلى الأبد.»

فاتجه بيتر إلى النافذة.

فسألته ويندي: «انتظر! إلى أين أنت ذاهب؟»

– «سأعود إلى نيفرلاند لأطلع سائر الصبية على نهاية القصة.»

فقالت ويندي متوسلة: «لا تذهب. أنا أعرف الكثير من القصص الأخرى، أفضل حتى من تلك.»

فجذبها بيتر قائلًا: «حسنًا، تعالي. سنطير معًا عودةً إلى هناك. يمكنك أن تقصي القصص على الصبية التائهين.»

فصاحت ويندي: «اتركني!» شعرت بالإطراء طبعًا لأنه دعاها، لكن لم يكن بمقدورها أن تترك والدتها المسكينة، بالإضافة إلى أنها لم تستطع الطيران.

فقال لها بيتر: «سأعلمك الطيران.»

وقد رغبت ويندي منذ زمن في تعلم الطيران.

أضاف بيتر: «فكري كم سيحبك الصبية التائهون. يمكنك أن تكوني أمًّا لهم، بل يمكنك أن تودعيهم الفراش، لم يودعهم أحد الفراش من قبل.»

لم تستطع ويندي مقاومة هذا، فقد تمتعت بغريزة أمومة قوية.

فسألت: «لكن ماذا عن جون ومايكل، إن تركتهما سيصبحان نوعًا ما كالصبية التائهين.»

هنا قفز جون ومايكل من فراشهما. كانا يستمعان طوال الوقت لما يجري في صمت بدون أن يكشفا عن أنهما في الواقع مستيقظان، لكن ما إن طرأت فكرة الطيران، حتى لم يستطيعا البقاء ساكنين.

لكن عندئذ استدار بيتر فجأة ثم قال: «صه!» وضاقت عيناه ثم أضاف: «أنصتوا. ألا تسمعون شيئًا؟»

فقالت ويندي إنها لا تسمع شيئًا.

فرد بيتر قائلًا: «هذا ما أعنيه بالضبط.» كانت نانا تنبح منذ اللحظة التي دلف فيها بيتر إلى الغرفة لأنها شعرت بوجوده، أما الآن فقد صمتت على نحو مريب.

فقال جون: «ثمة تفسير واحد فقط. لقد حطمت السلسلة التي تقيدها وهي تركض إلى هنا الآن. أريد أن أتعلم الطيران، لكن نانا ستفسد كل شيء!»

فقال بيتر: «تظاهروا بالنوم. سأختبئ أنا وتينك.»

وكان التالي: دلفت ليزا طاهية الأسرة إلى الحجرة مع نانا التي غمرتها الحماسة، فوجدت الأطفال ينامون بهدوء. كانت ليزا قد سئمت نباح نانا فارتأت أن أفضل وسيلة تطمئن بها الكلبة هو أن تصعد بها إلى الطابق العلوي وتثبت لها أن الأطفال بخير.

بعدها همست لنانا: «قلت لك هذا. إنهم بخير أيتها الكلبة السخيفة.»

لكن ظل الشك يساور نانا، إلا أن ليزا لم تكن لتحتمل المزيد، من ثم جذبت نانا إلى الطابق السفلي وقيدتها مجددًا.

ما الذي أمكن لنانا فعله بخلاف هذا؟ أخذت نانا تجذب السلسلة التي قيدتها مرة وأخرى إلى أن انكسرت أخيرًا، ثم ركضت إلى المنزل الذي كان السيد والسيدة دارلينج يتناولان فيه العشاء، واقتحمته وهي تنبح طلبًا للمساعدة.

عندئذ حتى السيد دارلينج فطن على الفور إلى أن هناك أمرًا خطيرًا يجري في المنزل، فشكر هو والسيدة دارلينج مضيفهما وغادرا مسرعين، لكن كانت عشر دقائق قد مرت على مغادرة نانا حجرة نوم الأطفال، وبيتر بان يمكنه عمل الكثير في عشر دقائق ....

قال بيتر للأطفال: «كل ما في الأمر هو أنكم تفكرون أفكارًا جميلة، وهي تحملكم إلى السماء.»

فأخذ الأطفال يعتصرون أذهانهم ويتصورون أكثر فكرة سارة يمكن أن تنبتها أذهانهم، لكن لا شك أن بيتر لم يخبرهم بالحقيقة كاملة؛ فلا يستطيع أحد أن يطير بدون أن يُنفخ عليه بعض غبار الجنيات، ظلت تينكر بيل ترفض مساعدة بيتر، لكنه حمل في يده بعض الغبار من الإمساك بها في وقت سابق، فنفخ بعضه على كل منهم و — كما لك أن تتخيل — طاروا!

كم ضحكوا وهم يسبحون في هواء الغرفة على نحو مضحك!

صاح مايكل وهو يفلت بأعجوبة من الاصطدام بجون بالقرب من الحمام: «حاذر!»

وقال جون: «لنذهب إلى الخارج.»

قال مايكل: «سأطير لألف ألف ميل!»

لكن هنا تجهمت ويندي، إذ بدا لها الأمر جسيمًا وخطيرًا بعدما شمل أخويها.

لكن بيتر الماكر علم كيف يقنعها بالمجيء؛ فقال لها: «هل حدثتك عن حوريات الماء؟»

فتمتمت ويندي: «حوريات ماء؟» هذا مشوق أكثر من الجنيات!

فأضاف بيتر: «وهل حدثتك عن القراصنة؟»

فقال جون: «لنذهب فورًا!»

كان السيد والسيدة دارلينج موشكين على الوصول إلى المنزل. لم يكونا على مقربة شديدة منه، لكنهما شهقا في منتصف الطريق وهما ينظران إلى أعلى صوب نافذة حجرة نوم الأطفال؛ فخلف ستار النافذة، توهجت الغرفة بالضوء وداخلها، دارت ثلاثة ظلال صغيرة على نحو لا يصدقه عقل ... لا على أرض الغرفة، بل في الهواء!

لا لم يكن هناك ثلاثة ظلال بل أربعة.

كانت النجوم إلى تلك اللحظة تشاهد ما يجري في السماء؛ فصاحت محذرة: «بيتر! الكبار عائدون!»

لم يكن أمام بيتر والأطفال وقت ليضيعوه، من ثم فتح بيتر نافذة الغرفة على مصراعيها، وصاح: «هيا» وحلق في سماء الليل يتبعه جون ومايكل وويندي.

وفي الشارع المؤدي إلى المنزل، شاهد السيد والسيدة دارلينج ونانا في ارتياع الأطفال الثلاثة يغادرون عشهم ويختفون.

الفصل الخامس

رحلة جوية طويلة

«آخر اليمين، بعد آخر ما ينتهي إليه العالم قبل حلول الصباح.»

تذكرت ويندي هذا العنوان الذي أخبرها بيتر به، لكن بدا لها أن الطيور نفسها إن حملت الخرائط واستعانت بها لن تجد نيفرلاند بهذه الإرشادات! من ثم لم يكن أمامها هي ومايكل وجون خيار سوى اتباع بيتر والثقة به تمامًا.

طار بهم بيتر في دوائر، مارًّا بقمم الكنائس، وأبراج الساعة أو أي بناء مرتفع آخر راق له، لكن جون ومايكل لم يمانعا هذا، فقد تسليا كثيرًا؛ فطارا فوق المحيط، وتسابقا بين أمواج البحار، أما ويندي فشعرت بالقلق؛ إذ بدا لها أنهم يطيرون منذ أيام، هل سيطيرون إلى الأبد؟ بدا هذا محتملًا.

لكن على الأقل بعث فيها الاطمئنان أن بيتر أطعمهم، رغم أن وسيلته لذلك كانت غريبة؛ كان يطارد الطيور التي تحمل طعامًا في فمها ويسرق منها الطعام، فتسرق الطيور الطعام منه، ويستمر هذا إلى أن ينجح أحد الطرفين في التهام الطعام سريعًا.

أسوأ ما في الأمر هو أن الأطفال أخذوا يشعرون بالنعاس بشدة. كان أحدهم أحيانًا يغط في النوم أثناء الطيران فيهبط كالصخر الثقيل تجاه أمواج البحر العاتية.

لكن كانت الأمور تنتهي على ما يرام دائمًا، فكان الأطفال الآخرون يصيحون في النائم: «استيقظ.» أو يهبط بيتر في اللحظة الأخيرة لينقذ من يسقط، لكنَّ كلًّا منهم اقترب إلى حد مخيف من السقوط في الماء عدة مرات.

ظنت ويندي أن بيتر قد يتركهم في مرة من المرات ليسقطوا في الماء كي يتسلى، فهذا سيكون مشهدًا مشوقًا.

من هنا همست إلى جون: «لا تغضبه، ماذا سنفعل إن تركنا؟»

– سنعود.

– نحن لا نعرف طريق العودة.

– إذن سنمضي في طريقنا.

– نحن لا نعرف إلى أين نحن ذاهبون أيضًا، بل إننا في الواقع لا ندري كيف نكف عن الطيران.

قلب جون الأمر في رأسه؛ فوجد ويندي محقة، لم يخبرهم بيتر كيف يكفون عن الطيران.

فقال لها: «في أسوأ الأحوال، يمكننا أن نمضي في طريقنا، فالأرض برغم كل شيء مستديرة. سنعود في نهاية المطاف إلى نافذة حجرة نومنا، أليس كذلك؟»

لكنهما لم يجدا بيتر، على كل هذا لم يكن أمرًا غير معتاد؛ فقد تعود أن يحلق عاليًا ليخاطب نجمة ما، أو يهبط ليتجاذب أطراف الحديث مع حورية ماء عندما يصيبه الضجر أو يلهيه أمر ما، ودائمًا يعود، لكن بدا أحيانًا أنه لا يذكر الأطفال إلا بالكاد، وكأنه مضى إلى مغامرة أخرى.

قالت له ويندي تذكره بها عندما عاد إليها ذات مرة وحدق فيها في ذهول: «أنا ويندي.»

فأجابها: «أعلم هذا.» لكن ويندي كان تعلم أنه يكذب.

تعلم الأطفال في نهاية الأمر كيف ينامون بدون أن يكفوا عن الطيران، لكن بيتر وجد هذا مملًا فكان يصرخ بأي حال كي يوقظهم ليس إلا لمشاهدتهم وهم يهبون من نومهم فزعين.

في النهاية، وصل الأربعة إلى نيفرلاند. بدا لويندي أن الفضل في ذلك يعود إلى الحظ أكثر مما يعود إلى إرشادات بيتر، وربما كانت الجزيرة نفسها تبحث عنهم.

قال بيتر: «ها هي الجزيرة.»

وأشار صوب الاتجاه الذي سطع فيه ضوء الشمس، التي أرسلت نحو مائة شعاع ذهبي يشير كالسهم إلى الجزيرة.

صاح جون: «انظروا، ها هي الشعاب المرجانية والكوخ الصغير والكهف، وبحيرتي التي تحلق عندها طيور النحام.»

وقال مايكل: «وها هي العجوز الضئيلة المحدبة والسلاحف التي تضع البيض والأقزام التي تنسج، وطائر النحام الذي تطير فوقه البحيرات في أحلامي!»

ونادت ويندي ذئبها الأليف قائلة: «مرحبًا، أيها الذئب الصغير، مرحبًا أيها القارب.»

شاهد الأطفال أيضًا كابوس اليوم الأول من المدرسة، وكابوس محاولة عدم الضحك في الكنيسة، واختبارات النحو المفاجئة التي لم يستذكروا لها، والنقود التي تتركها جنية الأسنان، وحلوى البودينج بالشوكولاتة اللذيذة. كان كل شيء مألوفًا جدًّا لهم ....

مما أزعج بيتر بعض الشيء، فقد علموا الكثير عن الجزيرة؛ وقد أراد أن يبدو الوحيد الذي يعرف كل شيء.

غربت الشمس بعد وقت قصير، وشعر الأطفال بالخوف، فشعر بيتر بأنه أفضل حالًا؛ لأن الأطفال صاروا بحاجة إليه مجددًا.

تحت بيتر والأطفال، برزت ظلال وضوضاء غريبة. لم يكن هناك في السماء الممتدة بلا آخر مصابيح ليلية أو نانا لتحرس الأطفال؛ كانوا وحدهم ....

فالتفوا حول بيتر ليحتموا به. كانوا يطيرون على ارتفاع منخفض للغاية حتى إنهم لامسوا مياه المحيط أحيانًا. وسيطر مناخ غريب، شعروا به جميعًا ....

قال بيتر: «هم يرفضون هبوطنا.»

فهمست ويندي وهي ترتجف: «من؟»

إلا أن بيتر أبى أن يجيب، وقال بدلًا من ذلك: «هذه الجزيرة يملؤها القراصنة، وقائدهم هو الكابتن هوك؛ أعظمهم.»

تحمس الأطفال من قبل لفكرة القراصنة، لكن لما أخبرهم بيتر بوجودهم أخذ مايكل في البكاء، وازدرد جون لعابه.

فأضاف بيتر: «لم يعد الكابتن هوك بالطبع الرجل العظيم نفسه، والفضل في هذا يعود لي؛ ففي معركتي الأخيرة معه بترت يده اليمنى بسيفي، واليوم ليس لديه أصابع بل مخلب حديدي. إن التقيتموه اتركوه لي. هل فهمتهم؟»

فقال جون: «حسنًا.»

فقال بيتر: «لا تقل (حسنًا)، قل (سمعًا وطاعة يا سيدي)، كل من يتبعني عليه أن يقول هذا.»

عندئذ فطن جون إلى أن ضوء تينكر بيل قد ييسر للقراصنة رؤيتهم.

فصاح الأطفال: «مرها بالرحيل على الفور.» لكن بيتر رفض.

وقال: «إنها تشعر بالخوف والوحدة.»

فتوصل الأربعة إلى حل وسط؛ سيحمل جون قبعته في يده ويحمل بداخلها تينك. أفلح هذا لبعض الوقت، إلى أن شعر جون بالتعب، فحملت ويندي القبعة.

فأصدرت تينك التي ظلت تشعر بالغيرة من ويندي رنينًا يقول: «لا تحسبي أن هذا يغير ما بيننا، هذا من أجل بيتر، ليس إلا.»

فجأة شق صوت دوي مدفع سماء الليل، وترددت أصداؤه بين الجبال التي غشيها الظلام.

فصاح جون: «هذا مدفع القراصنة! لقد أطلقوا النيران نحونا! هل أصيب أحد؟»

لكن، مهلًا ... أين بيتر وويندي؟

حمل الانفجار بيتر إلى نقطة نائية من البحر، وعصف بويندي وتينك عاليًا في السماء.

لم تكن تينك جنية شريرة، لكن أجساد الجنيات صغيرة جدًّا حتى إنها لا تتسع في المرة إلا لشعور واحد، وعندما كانت بجوار ويندي كان جسدها لا يتسع لاحتواء غيرتها.

فلما سنحت لها الفرصة للتخلص من ويندي، أشارت لها باتباعها؛ وما كان أمام ويندي وهي وحدها في السماء إلا أن تتبعها؛ فطارت خلفها مؤتمنة إياها.

الفصل السادس

الحياة تدب في الجزيرة

بدا أن جزيرة نيفرلاند تشعر باقتراب بيتر منها، وكأنها مخلوق حي يتنفس، فقد تموجت وجذبت أطرافها لتلقاه؛ فوتيرة الحياة على الجزيرة كانت تتباطأ عندما يرحل بيتر عنها؛ الجنيات كن ينمن في وقت متأخر، والحيوانات الضارية كانت تعنى بأطفالها، والقراصنة والصبية التائهون والهنود كانوا يكفون عن القتال ويكتفون بتوجيه السباب بعضهم إلى بعض.

لكن مع عودة بيتر أخذت الجزيرة تهدر، وكأن قطارًا قادم، وبدأ الصبية التائهون يبحثون عن بيتر، فيما أخذ القراصنة يبحثون عنهم، وأخذ الهنود يبحثون عن القراصنة، وبدأت الحيوانات تبحث عن الهنود. كل الجماعات طافت وطافت في أرجاء الجزيرة بنفس السرعة، لذا لم تدرك أي منها الأخرى قط.

لنتأمل كل مجموعة تمر بنا للحظة. أولى المجموعات التي تصادفنا هي مجموعة الصبية التائهين، عددهم يتباين؛ وإن كبر أحدهم — وهو ما يخالف قواعد المجموعة — تطرده المجموعة منها، وعدد أعضائها حاليًّا ستة أعضاء، يرتدون فراء الدببة ويحملون الخناجر، ويزحفون بين الأدغال في صف واحد.

قائد المجموعة هو توتلز الذي كان فتى سيئ الحظ؛ إذ بدا دومًا أن كبرى المغامرات تحدث عندما يجول بالجوار بحثًا عن وجبة خفيفة يتناولها. كان يعود ليجد سائر الصبية يرتدون عصابات رأس وقد فرغوا من معركة قوية، دامية. قد يتذمر من هذا، لكنه كان أكثر الصبية ودًّا وتواضعًا.

ثم هناك نيبز، الذي كان أكثر الصبية هندامًا، ويتبعه سلايتلي الذي نحت صافرات من الخشب ورقص على الألحان التي ألفها، واتسم أيضًا بأنه أكثر الصبية غرورًا. كان يرفع كثيرًا أنفه المغرور في وجه الجميع حتى إنك قد ترى أحيانًا ما بداخل أنفه.

رابع الصبية هو كيرلي، الذي وقع دائمًا في المشاكل، وتعود أن يتحمل اللوم على أفعال لم يرتكبها.

وأخيرًا، هناك التوءمان اللذان لن نصفهما لأن التمييز بينهما على أي حال مستحيل.

بدلًا من ذلك، لننتقل إلى القراصنة، الذين حاولوا العثور على الصبية: أشكالهم تبدو مخيفة.

قاد هذه المجموعة التي ارتدت ثيابًا رثة قرصان إيطالي حسن الطالع اسمه سيكو، حفر اسمه بالدماء على ظهر حارس السجن الذي فر منه، خلفه سار رجل عملاق يضع وشمًا يدعى بيل جوكس، تلقى في إحدى المرات ست طلقات قبل أن يلقي من يده كيس ذهب كان يسرقه.

ثم كان هناك كوكسون والسيد ستاركي؛ أكثر القراصنة تأدبًا حتى إنه كان يعتذر دائمًا قبل أن يطعن أي شخص بسيفه.

يتلوهما القرصان الأيرلندي سمي والقرصان نودلر ويتبعهما المزيد من الرجال المتوحشون.

في نقطة ما وسط هؤلاء الأشرار الخطرين سار جيمس هوك، القرصان الأكثر هيبة، كان يموج خصلات شعره الأسود اللامع لتحيط بوجهه الوسيم صارم الملامح، وعيناه كانتا سوداوين شديدتي السواد خاويتين من التعبير، إلا عندما يطعن شخصًا ما بخطافه، عندها كانتا تلتمعان ببريق أحمر وتنضحان بالسعادة.

يختلف هوك عن سائر القراصنة الذين يشكلون طاقمه. إنه شجاع — إلا إذا رأى دمه — وهو بارع في سرد القصص، يتحدث بلباقة وصوت خفيض — حتى عندما يطلق السباب — ويكون في أوج غموضه عندما يتحدث بتهذيب.

لننتقل الآن إلى الهنود، فهم يزحفون بهدوء شديد، حاملين فئوسًا وسكاكين، وبينهم الأميرة الهندية الجميلة تايجر ليلي التي لا يجسر أحد على الاقتراب منها خوفًا من أن تشهر بلطتها في وجهه.

خلف الهنود، زحفت الحيوانات الضارية من الأسود والنمور والدببة وغيرها من الوحوش. كانت هذه الحيوانات شديدة الجوع إلى حد أن ألسنتها كانت تتدلى من فمها.

وخلف كل هؤلاء، زحف تمساح عملاق، تضور بدوره جوعًا، إلا أنه لم يتُقْ لالتهام أي لحم، بل تاق لالتهام شيء بعينه، أو بالأحرى شخص بعينه ....

أول من توقف عن الزحف هم الصبية، إذ أخذ التعب يدركهم.

قال سلايتلي لاهثًا: «أتمنى أن يعود بيتر الآن، ويخبرنا كيف تنتهي قصة سندريلا.»

كان توتلز على وشك أن يرد على هذا، لكن عندئذ سمع الصبية القراصنة وهم يسيرون ويغنون من مكان بعيد، فتوقفوا، إلا أن القراصنة كانوا في طريقهم إليهم.

درب بيتر الصبية جيدًا، لذا علموا كيف يتصرفون بالضبط. ركض كل منهم في لمح البصر إلى شجرة مجاورة، وبدلًا من أن يتسلقها، هبطها.

كانت الأشجار مفرغة من الداخل، بكل منها فتحة تتسع لأحد الصبية، وجميعها تقود إلى كهف واحد تحت الأرض.

سمع هوك بتلك الأشجار ورأى أنه من السخف أن يكون لكل صبي شجرة، لكن — بالنظر إلى ما يخدم أغراضه — صب هذا في صالحه تمامًا؛ فالعثور على سبع أشجار أسهل من العثور على شجرة واحدة!

سرعان ما وصل القراصنة إلى النقطة الخالية من الأشجار التي وُجد فيها الصبية قبل قليل. انتشر القراصنة في المكان لمتابعة بحثهم عن الصبية، عدا هوك وسمي اللذين مكثا خلف الجميع.

قال سمي: «أعتقد أنني لمحت نيبز أيها القائد، هل علي أن أطارده؟ أستطيع أن أدغدغه بسيفي.»

فقال هوك: «لا، أريد أن أقبض عليهم جميعًا، لا سيما قائدهم بيتر بان. لقد بتر ذراعي ورماها لتمساح مار.» ثم لوح بخطافه الحديدي قائلًا: «يومًا ما سأصافحه بهذا.»

فسأله سمي: «ألهذا تخشى التماسيح؟»

فأجاب هوك: «لا أخشى كل التماسيح، بل هذا التمساح فقط. لقد وجد طعم ذراعي لذيذًا، حتى إنه يتعقبني منذ تلك اللحظة، ويلعق شفتيه منتظرًا التهام بقيتي. ما منعه من ذلك إلى الآن هو أنه ابتلع ساعة تدق بداخله، لذا أسمعه دائمًا وهو قادم فأفر.»

فقال سمي: «ستفرغ بطارية تلك الساعة يومًا ما، وتكف عن الدق.»

فقال هوك في حزن وهو يجلس على نبتة مشروم كبيرة: «نعم.»

لكنه عندئذ شعر أن النبتة دافئة على نحو غريب، فنهض، وجذبها، ووجد رأسها يُنزع بسهولة، وهنا أخذ الدخان ينبعث من النبتة التي صارت بلا رأس؛ لم تكن تلك نبتة مشروم على الإطلاق، بل مدخنة!

سمع هوك أصواتًا في أعماق المدخنة، كانت هذه أصوات الصبية التائهين؛ لقد عثر هوك على كهفهم!

تلفّت هوك حوله، فوجد أيضًا فتحات في سبع شجرات مجاورة؛ وجد مداخل الكهف.

همس سمي لهوك قائلًا: «سمعتهم يقولون إن بيتر ليس معهم.»

فابتسم هوك وأومأ برأسه ثم أعاد بحذر رأس المشروم إلى مكانها؛ كانت لديه خطة.

فقال: «لنعُدْ إلى السفينة، سنخبز لهم كعكة ونتركها عند صخرة مارونرز عند بحيرة حوريات الماء. لا شك أنهم سيعثرون عليها ويلتهمونها، فتصيبهم الكعكة بألم في معدتهم، ويصبح أسرهم أسهل.»

كم ضحك هوك وسمي في طريقهما إلى قاربهما! لكن سرعان ما حل محل صوت ضحكاتهما صوت آخر، كان هذا صوت ساعة تدق. توقف هوك عن الضحك فجأة مرتجفًا.

وصرخ سمي: «اهرب!» لكن هوك كان قد فر بالفعل.

الفصل السابع

طائر الويندي

لما لم ينتبه الصبية إلى أن القراصنة قد عثروا على مخبئهم، مكثوا بعض الوقت في كهفهم الموجود تحت الأرض، ثم خرجوا منه، فأبصر نيبز فجأة شيئًا في السماء.

وقال: «انظروا إلى هذا الطائر الأبيض، يبدو أنه يقول «مسكينة ويندي!» لا بد أنه طائر اسمه ويندي.»

لكن نيبز في الواقع لم ير طائر اسمه ويندي، بل كانت تلك المسكينة ويندي نفسها تحلق عاليًا.

ثم سمع الصبية صوتًا آخر. كان هذا صوت تينكر بيل الرفيع الذي تملؤه الغيرة. كانت قد كفت عن التظاهر بمعاملة ويندي بود، وأخذت تقرصها محاولة دفعها إلى السقوط.

صاحت تينكر بيل في الصبية من أعلى: «يأمركم بيتر بأن تصيبوا هذا الطائر الأبيض.»

فصاح الصبية: «بسرعة. الأقواس والسهام.»

وضع توتلز سهمًا على قوسه في حماس.

وقال: «ابتعدي يا تينك» وأطلق سهمه لتهبط ويندي وهي ترفرف بذراعيها في الهواء، وقد اخترق السهم صدرها.

فقال توتلز مزهوًّا: «لقد أصبت طائر الويندي، سيفتخر بيتر بي!»

فضحكت تينك فرحًا بخدعتها وهي تصدر رنينًا يقول: «أيها الأحمق السخيف» ثم ذهبت لتختبئ. كانت تعلم أنها ستقع في مأزق لأنها حثت الصبية على إطلاق السهام على ويندي.

نظر سلايتلي إلى ويندي فعلت وجهه نظرة حزينة.

وقال: «هذا ليس طائرًا. أعتقد أنها سيدة.»

فقال توتلز في توتر: «سيدة؟»

وقال كيرلي: «بيتر كان آتيًا بسيدة تعنى بنا وأنت قتلتها!»

فالتقط توتلز نفسًا عميقًا في حزن وتمتم: «أنا السبب، أنا من أصاب السيدة ويندي.» ثم دار على عقبيه ليغادر المجموعة.

لكن عندئذ سمع الصبية صوت صيحة ديك آتية من السماء. تلك كانت إشارة بيتر. لقد عاد!

فتجمعوا حول ويندي حتى لا يراها، وهبط بيتر أمامهم، لكن لم ينطق أحد بكلمة.

فسأل بيتر: «لم هذا الصمت يا أولاد؟»

لكن الصبية لزموا الصمت.

فقال: «لا يهم. لدي نبأ لكم، لقد أتيتكم بأم! لعلكم قد رأيتموها بالفعل. أعتقد أنها كانت تطير في هذا الاتجاه.»

فتنحنح توتلز وقال في شجاعة: «تنحوا يا أولاد.»

فأطاعه الصبية وتنحوا ليكشفوا عن جسد ويندي. فانحنى بيتر ونزع السهم عن قلب ويندي، ثم التفت إلى فريقه.

وسأل في صرامة: «من رمى هذا السهم؟»

فأجاب توتلز: «أنا يا بيتر.»

فرفع بيتر سهمه في غضب واستعد لأن يطلقه على توتلز، لكنه لم يقو على فعل ذلك.

هنا لمح نيبز ويندي تتحرك، فقال: «السيدة ويندي حركت ذراعها!»

فانحنى بيتر نحو ويندي مجددًا ورأى جوزة البلوط التي أعطاها لها عندما طلبت منه قبلة، كانت معلقة على خيط حول رقبتها. لقد أصاب السهم الجوزة، فنجت ويندي!

فقال بيتر لويندي: «عجلي بالشفاء كي أعرفك بالصبية وحوريات الماء.»

فتأوهت تينك من مخبئها بصوت مرتفع.

وقال كيرلي: «اسمعوا تينك وهي تبكي لأن السيدة ويندي ما تزال على قيد الحياة.» وأخبر الصبية بيتر بجريمة تينك.

فقال: «لم نعد أصدقاء يا تينك. ارحلي ولا تعودي قط.»

فطارت تينك في هلع إلى كتفه وتوسلت إليه أن يغفر لها، لكنه أزاحها عن كتفه.

تململت ويندي بعض الشيء وهي مستلقية على الأرض، كانت تفيق.

فقالت: «لا بأس، ليس عليك أن تطردها.»

فقال بيتر لتينكر بيل: «حسنًا، يمكنك أن تعودي ولكن ليس قبل أسبوع.»

قد تحسب أن تينكر بيل ستدين بالعرفان لويندي لأنها دافعت عنها، لكن سماحة ويندي لم تزد تينكر بيل إلا رغبة في قرصها، وويندي كانت آنذاك متعبة للغاية، تؤلمها سقطتها القوية؛ حتى إنها تقلبت وراحت في النوم.

فقال بيتر: «لدي فكرة، لنبني لويندي بيتًا.»

فابتهج الصبية؛ إذ كانوا يحبون البناء، وينجزون أعمال النجارة بسرعة. فانتشروا سريعًا يجمعون الحطب والأغصان ويبحثون عن أزهار ناعمة تنفع لحشو وسائد فراش ويندي.

ثم هبط جون ومايكل من السماء، كانا يطيران أثناء نومهما، لكنهما استيقظا فور اصطدامهما بالأرض، فصاح مايكل وهو يفرك عينيه: «أماه، نانا،»

وسأل جون: «أين نحن؟ هل نحن نحلم؟»

ثم لمحا بيتر، الذي قال لهما والحيرة بادية عليه: «آه، أهلًا.» كان قد نسيهما تمامًا.

استخدم بيتر قدمه كمقياس وانحنى لقياس طول ويندي لتحديد الحجم الذي يجب أن يكون عليه بيتها.

ثم قال لجون ومايكل: «تعاليا. سنبني بيتًا لويندي، وعليكما بمساعدتنا.»

فقال جون: «لا أفهم لم يجب أن تحظى ويندي ببيت خاص بها. إنها مجرد فتاة.»

فقال كيرلي: «ستكون ويندي أمنا. أما سمعتما بيتر؟ اذهبا إلى العمل!»

تململت ويندي وتأوهت بعض الشيء أثناء نومها، فصاح بيتر: «سلايتلي، اذهب لإحضار طبيب.»

فقال سلايتلي: «سمعًا وطاعة» وغادر على الفور، ناسيًا أن الجزيرة ليس عليها أطباء، لكنه أدرك أن عليه ألا يخالف بيتر، من ثم عاد مرتديًا قبعة جون والجدية الشديدة بادية عليه.

مع أن الصبية الآخرين فطنوا إلى أن سلايتلي يتظاهر بأنه طبيب، لم يفطن بيتر إلى ذلك؛ فبالنسبة له، بدا الأمر واقعيًّا، ولما كان مقتنعًا بأن سلايتلي طبيب بالفعل، قال له: «ساعد هذه السيدة، إنها مريضة جدًّا.»

فقال سلايتلي: «سأعطيها دواء.» وانحنى على جسد ويندي متظاهرًا بأنه يفعل ذلك، ثم قال: «ها قد شفيت.»

فقال بيتر: «أرحت قلبي!»

بنى الصبية بيت ويندي حولها أثناء نومها. كانوا يدركون أنه سينال إعجابها لأنها أنشدت أثناء نومها: «أتمنى بيتًا جميلًا، أصغر بيت في العالم، حوائطه لامعة تبرق بالأحمر، والأخضر اليانع.»

فأنشد الصبية وهم يبنون البيت: «بنينا حوائط بيتك وسقفك الأخضر اليانع، وصنعنا بابًا جميلًا، أخبرينا الآن يا أمنا، هل تودين شيئًا آخر منا؟»

فأنشدت ويندي أثناء نومها: «بما أنكم قد سألتموني، تسعدني النوافذ في كل مكان، التي تدخلها زهرات النرجس ويطل منها الرضع.»

فبنى الصبية النوافذ، وقطفوا الزهور من أجل ويندي، لكنهم لم يدروا كيف يأتوا بالأطفال الرضع.

فقالوا: «لنكن نحن هم.»

بدا البيت جميلًا عندما فرغوا منه، واحتوى جسد ويندي كله. كانوا على وشك دخوله لمفاجأتها، لكنهم عندئذ انتبهوا إلى أنهم نسوا أن يضعوا مطرقة على بابه.

فصاحت فيهم تينك من أعلى: «أيها الحمقى السخفاء!»

فعلق توتلز نعل حذائه على الباب، وبذا حلت المشكلة، ولم يعد باقيًا إلا طرق الباب.

فقال بيتر محذرًا: «قفوا منتصبين، وكونوا في قمة التهذيب.»

ثم طرق الباب في أدب، وانتظر الجميع.

ففتحت ويندي الباب وعيناها تطرفان بنعاس، فنزع الصبية عنهم قبعاتهم وانحنوا لها.

فقالت في حيرة ودهشة: «أين أنا؟»

فتدافع الصبية وتقلب بعضهم فوق بعض ليشرحوا لها.

قال سلايتلي: «لقد بنينا لك هذا البيت.»

وقال نيبز: «هل يعجبك؟»

فقالت ويندي وهي تنظر حولها: «كيف أدركتم ما أتمناه بالضبط؟»

فقال سلايتلي: «أعتقد أن ذكاءنا قادنا إلى ذلك وحسب.» ولم ير داعيًا لإخبارها بما كانت تنشده أثناء نومها.

فسأل التوءمان: «هل لنا أن نكون أطفالك؟»

فقالت: «كم أنتم لطفاء! لكن أنا نفسي طفلة وليس لدي خبرة حقيقية كأم.»

فقال بيتر الذي كان أقلهم عهدًا بالأمهات: «لا بأس، نحن نحتاج إلى شخصية لطيفة تتسم بالأمومة وحسب، وأنت ستفين بالغرض.»

فوافقت ويندي على أن تحاول، ودعت الصبية إلى بيتها الجديد، فلما اجتمعوا قامت بأول فعل لها كأم وأخبرتهم بنهاية قصة سندريلا، وبعدما فرغت من القصة تبعت الصبية إلى كهفهم وأودعتهم فرشهم لينام الليل، ثم عادت إلى بيتها.

الفصل الثامن

أسوأ من الليل

صباح اليوم التالي، قيست أحجام أطفال آل دارلينج لعمل فتحات الأشجار الخاصة بهم. كان هوك إن تذكرْ قد رأى أنه من السخيف أن يكون لكل من الصبية التائهين شجرة، لكن هذا في الواقع كان إلى حد كبير منطقيًّا. فكل صبي خصصت له شجرة ذات باب بحجم يختلف عن الأخرى، باب يتسع لحجمه بالضبط وكأنه صنع حسب مقاسه بالضبط، بذا يستطيعون جميعًا دخول الكهف في آن واحد، بدون أن يضطروا إلى الوقوف صفًّا لدخوله، والأهم من ذلك هو أن كل شجرة لم تتسع إلا لواحد فقط من الصبية التائهين، وهذا كان مفيدًا، لا سيما عندما يشن القراصنة هجمات خفية.

صار أطفال آل دارلينج بعد بضعة أيام من التدريب يستخدمون أشجارهم بسرعة وبراعة. كانوا يحتبسون أنفاسهم لدى دخول الكهف ثم يهبطونه بالسرعة المحددة بالضبط، ولدى صعوده، يحتبسون أنفاسهم ثم يتسلقون.

وقد أغرموا جميعًا ببيتهم الجديد تحت الأرض؛ فقد كان بسيطًا وجميلًا يشبه المخيم، حتى إن ويندي أيضًا صارت تقيم فيه لأنها شعرت بالوحدة في بيتها وبدا لها أنها بين أسرة بالفعل. كان الكهف عبارة عن حجرة كبيرة توح بمناخ من الألفة يفرش أرضها التراب، استخدم فيها الصبية نباتات عش الغراب كمقاعد والأشجار المبتورة كمناضد.

وناموا جميعًا — عدا مايكل — على فراش كبير، تزاحموا عليه، ولأن الفراش كان مزدحمًا، وُضعت قاعدة صارمة تقضي بعدم التقلب إلا عندما يعطي أحد الصبية إشارة بذلك، عندها كان الجميع يتقلب في آن واحد.

كان بمقدور مايكل بدوره أن ينام على الفراش، فهناك متسع دائمًا لشخص آخر في نيفرلاند، لكن ويندي أحبت التظاهر بأنه طفلها لأنه كان أصغر الصبية، لذا كانت

تضعه في سلة تعلقها بجوار فراشها. أما ذئبها الأليف الذي تبعها في كل مكان، فكان ينام على الأرض لحراستها هي ومايكل.

تعودت تينكر بيل بدورها أن تنام في الكهف في فتحة صغيرة في الحائط، لا يزيد حجمها عن حجم قفص طائر، علق في مدخلها ستار كانت تغلِّقه عليها عندما تود أن تحظى ببعض الخصوصية، وكانت حجرتها برغم صغرها هي أجمل جزء في الكهف؛ فقد امتلأت بأقمشة جميلة وأغطية فرش جميلة وأثاث عتيق الطراز نحت ببراعة.

لذا كانت تقول لويندي: «قد يكون بيتك أكبر، لكن بيتي أفضل.»

لكن سواء أكان بيت تينك أفضل أم لا، ثمة ما شغل بال ويندي أكثر من هذا، فالصبية جعلوها دائمة الانشغال إما بطهو الطعام أو التنظيف أو خياطة الثياب، حتى إنها كانت تمضي أحيانًا أسابيع في الكهف قبل أن تغادره وترى ضوء النهار، مما جعلها تفتقد حياة الاستقلال السابقة التي عاشتها وتتحسر عليها كما قد يفعل الكبار.

أما والديها، فقد افتقدتهما وساورها القلق بشأنهما، لكن ثمة ما جعل الوقت والقلق يتلاشيان في نيفرلاند. كانت ويندي أيضًا إلى حد ما موقنةً بأن نافذة غرفة نومها القديمة وذراعا والديها سيظلان دائمًا مفتوحين لها عندما تطير إليهما.

لكن ما أزعجها هو أن جون بدأ ينسى والديهما. أما مايكل، فقد نسيهما بالفعل تمامًا، وحسب في الواقع أن ويندي هي أمه الحقيقية.

لذا أنشأت مدرسة صغيرة تدرس حياة أطفال آل دارلينج السابقة بدلًا من الهجاء والرياضيات.

أراد الصبية الآخرون بدورهم أن يلتحقوا بالمدرسة، فسمحت لهم بالجلوس فيها، لكنهم بالطبع كانوا يرسبون في الاختبارات دائمًا، لا سيما الاختبارات التي حوت أسئلة صعبة مثل «ما هو لون عين ماما؟» و«كيف أمضينا عطلة الكريسماس الماضية»، و«صف ضحكة بابا».

لم يذهب بيتر إلى المدرسة أو يخضع لاختباراتها قط، وقال إن السبب هو أنه يكره الأمهات والعطلات والضحكات، لكنه في الواقع لم يستطع القراءة أو الكتابة.

كان يجول في الجزيرة وحده عندما يكون سائر الصبية في المدرسة. لم تستطع ويندي قط أن تتبين ما إذا كان يذهب في مغامرات حقيقية أم مغامرات من نسج خياله، إلا إذا صحبها أو صحب أحد الصبية، لكن حتى آنذاك كانت أحيانًا ما تعجز عن الحكم، غير أن ويندي كانت لها مغامراتها الخاصة.

ما المغامرة التي تود سماع قصتها؟ هل تود سماع قصة هجوم الهنود على الكهف الموجود تحت الأرض، عندما انحشر بعضهم في الأشجار المفرغة كما ينحشر بابا نويل سمين في المدخنة؟ ربما تود بدلًا من ذلك أن تسمع عن المرة التي أنقذ فيها بيتر بان الأميرة تايجر ليلي عند بحيرة حوريات الماء، فأصبحت صديقته إلى الأبد.

ربما من الأفضل أن أخبرك عن الكعكة التي خبزها القراصنة وتركوها حول الصبية لتصيبهم بألم في بطونهم، وظلت ويندي تنزعها من أيدي الصبية كلما وجدتها، إلى أن فسد طعمها ولم يعدوا يرغبون في تناولها، ثم تعثر هوك في آخر الأمر فيها بعد أن صارت جامدة سيئة المذاق لتصيب إصبع قدمه.

يمكنني أيضًا أن أخبرك عن أصدقاء بيتر بان من الطيور، لا سيما طائر نيفر الذي عاش أعلى شجرة عند بحيرة حوريات الماء، وأستطيع أن أخبرك كيف سقط عش الطائر ذات مرة في البحيرة فاستمر في الجلوس على بيضه بأي حال لحمايته، فأمر بيتر بألا يزعجه أحد.

ثمة مغامرة أخرى عند البحيرة، مشوقة بنفس القدر تقريبًا، حاولت فيها تينك بمساعدة جنيات أخريات أن يدفعن ورقة شجرة تحمل ويندي وهي نائمة لتطفو إلى البر القريب من الجزيرة، لكن ويندي استيقظت وسبحت عائدة إلى نيفرلاند لتحبط تينكر بيل.

لعل أفضل الطرق لاختيار المغامرة التي تود سماع قصتها هي إلقاء نرد وحسب. إذن تربح البحيرة.

إن حالفك الحظ في أحلامك ليلًا، فستجد البحيرة مكانًا جميلًا تحيا فيها حوريات الماء وتنشدن أغانيهن الجميلة. أما في يقظتك، فأقرب نقطة إلى البحيرة يمكنك أن تصل إليها هي النقطة التي تتكسر فيها الأمواج على الشاطئ عند مغيب الشمس.

أمضى الأطفال أيامًا طويلة من الصيف عند البحيرة، يسبحون أو يطفون على صفحة الماء في خمول. شعرت ويندي بخيبة أمل شديدة لأن حوريات الماء بدورهن اتضح أنهن غير ودودات كتينكر بيل؛ فحتى إن لم يرششنها بالماء بأذيالهن، كن يتجاهلنها تمامًا.

إلا أن حوريات الماء لم يعجبهن الصبية أيضًا، عدا بيتر الذي أمضى ساعات يتحدث إليهن أو يجلس على أذيالهن عندما تجردن كثيرًا من الحياء.

كانت البحيرة تبدو في أبهى صورها ليلًا، عندما يطلع القمر، وتبدأ حوريات الماء في إنشاد أغانيهن الجميلة العجيبة الحزينة لجذب البحارة إلى الصخور، إلا أنها كانت مكانًا غير آمن للبشر في هذا الوقت.

أدركت ويندي هذا، لذا حرصت دائمًا على جمع الأطفال والمغادرة قبل حلول الظلام، لكن في هذا اليوم، فيما كانوا يغفون فوق صخرة مارونرز بعد الغداء، حدث شيء غريب ومخيف.

لم يكن الليل قد حل بعد — أو على الأقل هذا ما حسبته ويندي — لكن بدا أن البحيرة تتبدل من حولهم. ارتجفت صفحة الماء قليلًا، وحل محل ضوء الشمس ظلال.

لم يأت الليل، بل أتى ما هو أسوأ.

الفصل التاسع

بحيرة حوريات الماء

يرجح أنه كان على ويندي أن توقظ الأطفال على الفور، إلا أنها كانت برغم صغر سنها أمًّا، والأطفال أكلوا طعامهم منذ أقل من نصف ساعة؛ لذا لم توقظهم، حتى عندما تناهى إلى سمعها صوت تجديف آت من بعيد، مع أنها شعرت بخوف شديد حتى إنه بدا لها وكأن قلبها سيقفز من محجره؛ لذا وقفت تحرس الأطفال ريثما يهضمون الطعام بدلًا من إيقاظهم.

أما بيتر — الذي كان بدوره يغفو على الصخرة — فقد شتم رائحة الخطر، حتى أثناء نومه، فلما سمع صوت التجديف، هب على قدميه وقد تنبهت حواسه وأيقظ الصبية بسرعة.

لم يهمس إلا بهذه الكلمة المخيفة: «قراصنة» ليجمع الكل حوله.

وبعدها صاح في الأطفال: «اغطسوا الآن.»

ركض الجميع في لمح البصر، ونزلوا الماء، وحاولوا قدر استطاعتهم الاختباء، فيما توقف زورق القراصنة عند الصخرة التي جلس عليها الأطفال قبل وقت قليل. كان على الزورق سمي وستاركي وأسيرتهما الأميرة تايجر ليلي.

أسرها القراصنة أثناء محاولتها التسلل إلى متن سفينتهم وهي تحمل سكينًا، فقيدوا يديها وكاحليها، وقرروا تركها عند الصخرة لتغرق عندما يأتي المد ويغمر الصخرة.

لكن تايجر ليلي لم تتوسل، فلأنها كانت أميرة بمعنى الكلمة جلست منتصبة تحدق في سمي وستاركي بإباء وشموخ.

صرخت ويندي من النقطة التي اختبأت عندها بالبحيرة؛ إذ لم تشهد من قبل مثل هذه القسوة، ومثل هذه الشجاعة.

أما بيتر فقد شهد كلا الأمرين كثيرًا، لذا لم يتأثر كثيرًا بهما، إلا أنه كره الظلم، وثمة فردان هنا في مواجهة فرد واحد. كان من السهل على بيتر أن ينتظر إلى أن يرحل القراصنة وينقذ تايجر ليلي، لكنه لم يختر قط الحلول السهلة.

من هنا صاح مقلدًا صوت الكابتن هوك قدر استطاعته: «أيها الأوغاد.»

فسأل سمي وستاركي وهما يحدقان في الظلام: «حضرة القائد؟»

قال ستاركي: «لا بد أنه يسبح قادمًا إلينا.»

فصاح سمي: «سنضع تايجر ليلي عند الصخرة.»

فقال بيتر: «أطلقا سراحها، وإلا سأغوص بخطافي في جسديكما.»

بدت هذه التعليمات غير منطقية لسمي وستاركي، لكنهما تخوفا من عصيان قائدهما، من ثم قطعا الحبال التي قيدت تايجر ليلي، فانزلقت بنعومة وسقطت في البحيرة وكأنها ثعبان ماء.

ثم صرخ صوت فجأة: «انتباه.» لكن هذه المرة كان هذا صوت هوك الفعلي الذي بدا أنه بدوره في الماء، يسبح متجهًا نحو القارب.

شاهد ويندي وبيتر من موقعهما في المياه التي غمرها الظلام هوك وهو يتشبث بخطافه المعدني بجانب القارب ويجذب نفسه صاعدًا على متنه، ورأت ويندي عبر ضوء المصباح الذي حمله القراصنة وجهه الوسيم القاسي الملامح، وهمت أن تسبح مبتعدة لكن بيتر أشار إليها بألا تتحرك قيد أنملة.

ما إن صعد هوك على متن القارب، حتى جلس واضعًا رأسه بين يديه، يئن بإحباط شديد.

فسأله سمي: «ما الأمر أيها القائد؟»

أجابه هوك متنهدًا: «انتهى الأمر. لقد عثر الصبية التائهون على أم.»

امتلأت ويندي زهوًا وطفت على صفحة الماء أعلى قليلًا.

وقال ستاركي: «يا له من يوم تعس!»

فسأل سمي: «ما هي الأم؟»

عندئذ مر بهم عش طائر نيفر وهو يطفو على صفحة الماء، والطائر الأم لا يزال يجلس على العش.

فقال هوك: «هذه أم، وهي مثال جيد على ذلك. لقد سقط عشها في الماء، لكن هل تراها قد هجرته؟ كلا.»

اختلفت نبرة صوته لحظة وكأنه يسترجع ذكريات طفولته ويتذكر والدته، لكنه نفض الضعف عنه وأزاح بخطافه ما بدا كدمعة دمعة صغيرة.

فقال سمي: «أقترح أيها القائد أن نختطف أم الصبية ونجعلها أمًّا لنا.»

فقال هوك: «نعم، سنقبض على الصبية وندفعهم إلى القفز من السفينة ليلقوا حتفهم! ثم سنحتفظ بالأم.»

فهلل سمي وستاركي.

لكن فجأة تذكر هوك تايجر ليلي، فقال: «مهلًا. أين الأميرة؟»

فأجابه سمي: «لقد أطلقنا سراحها.»

فسأل هوك: «لماذا؟»

أجاب سمي متلعثمًا: «لقد أمرتنا بهذا.»

وقال ستاركي: «أنا أيضًا سمعتك يا حضرة القائد.»

فدوى صوت هوك كالرعد وهو يقول: «أي حيلة هذه؟ لم أصدر هذا الأمر.» ثم تلفت حوله وارتجف وقال: «أيتها الأرواح الشريرة التي تحوم حول البحيرة الليلة، أتسمعينني؟»

فأجاب بيتر بصوت هوك: «أسمعك.»

تحلى هوك بالشجاعة، أما سمي وستاركي فقد احتضن كل منهما الآخر وأخذا يرتجفان.

صاح هوك: «من أنت؟»

فأجاب الصوت: «أنا جيمس هوك، قبطان سفينة جولي روجر.»

فصاح هوك غاضبًا: «لا لست كذلك.»

فقال بيتر بإصرار: «بل أنا كذلك.»

فقال هوك محاولًا أن يبدو ودودًا: «إن كنت أنت هوك، فمن أنا؟»

فأجاب بيتر بسرعة: «أنت سمكة قد.»

اتسم سمي وستاركي بالغباء والغرور بعض الشيء، من ثم تمتما: «سمكة قد؟ هل كنا نتلقى الأوامر طيلة هذا الوقت من سمكة قد؟»

لم يكن هوك مصغيًا إليهما تقريبًا، لذا لم يكن أكثر ما أزعجه هو تشككهما فيه، بل أزعجه فجأة ضعف ثقته بنفسه، وشعر بأن غروره يتخلى عنه، فهمس له: «لا تتخلَ عني.»

ثم سأل بمكر: «هوك، هل لك صوت آخر؟»

لم يقو بيتر قط على مقاومة الألعاب، فأجاب بصوته: «نعم.»

– «وهل لك اسم آخر؟»

– «نعم.»

– «هل أنت حيوان؟ أو نبات، أو معدن؟».

– فأجاب بيتر: «نعم، ولا، ثم لا.»

فسأل هوك: «هل أنت رجل؟»

فقال بيتر بصوت غلبت عليه نبرة الغضب: «لا.»

– «إذن، أنت صبي؟»

– «نعم.»

– «هل أنت صبي عادي؟»

أرادت ويندي بدورها أن تشترك في اللعبة فقالت: «بل هو صبي مدهش.»

لم يجد هوك جوابًا.

فقال بيتر في زهو: «لن تستطيع التخمين، لن تستطيع التخمين، أقر بهزيمتك.»

فصاح القراصنة: «نعم، نقر بهزيمتنا. أخبرنا من أنت.»

فصاح بيتر ضاحكًا: «أنا بيتر بان.»

فعاد هوك على الفور إلى طبيعته، وصار سمي وستاركي من جديد من رجال طاقمه المخلصين.

ودوى صوت هوك كالرعد: «اقبضا عليه.»

فصفر بيتر مناديًا طاقمه، كان الصبية التائهون في مناطق مختلفة من البحيرة.

فصاحوا: «قادمون يا بيتر.»

المعركة كانت قصيرة لكنها حامية الوطيس. تعارك سمي وستاركي مع الصبية والسيوف تطير في الماء والهواء، يتبعها الصفير والهتاف وصرخات الألم.

أما بيتر بان وهوك فجمعتهما معركتهما الخاصة. لم يلتقيا في الماء بل على صخرة مارونرز التي صعداها مصادفة في الوقت نفسه من جهتين متقابلتين. كان الظلام حالكًا حتى إنهما لم يرَ أحدهما الآخر إلا عندما وصلا إلى منتصف الصخرة والتقيا وجهًا لوجه.

جذب بيتر سكينًا من حزام هوك وكاد أن يجهز عليه، إلا أنه لاحظ أنه في نقطة أعلى على الصخرة منه، ولم تكن تلك لتعد حربًا عادلة؛ لذا مد يده إلى هوك ليرفعه إلى أعلى.

غير أن هوك لم يحب الحرب العادلة، من ثم انحنى وعض بيتر.

لم يكن الألم الذي شعر به بيتر هو ما جعله يتسمر دهشة، بل كانت دهشته من الظلم هي ما جعله يقف شاعرًا بالعجز، وكل الأطفال يشعرون بذلك عندما يدركون لأول مرة أن العالم ليس مكانًا عادلًا. تعرض بيتر للظلم من قبل، لكنه كان ينسى دائمًا، لذا تصرف وكأنه يتعرض له للمرة الأولى.

ضرب هوك بيتر مرتين بخطافه وكاد أن يجهز عليه، لولا أن تناهى إلى سمعه في تلك اللحظة صوت ساعة تدق، لذا بدلًا من أن يجهز عليه، نزل الماء على الفور سابحًا على نحو هستيري نحو سفينته.

الفصل العاشر

طائر نيفر

ربح الصبية التائهون معركتهم في الماء مع سمي وستاركي، لكنهم لم يستطيعوا العثور على بيتر أو ويندي أو هوك، فأبحروا عائدين إلى بيتهم على زورق القراصنة وهم ينادون على بيتر وويندي طوال الطريق، لكن لم تجبهم إلا حوريات الماء ساخرات من حين لآخر.

فقال الصبية: «لابد أنهم يسبحون أو يطيرون عائدين إلى البيت.»

ربما كانوا سيسمعون في غضون وقت قصير صوتين يطلبان النجدة إن مكثوا بالبحيرة؛ إذ لما كان بيتر مصابًا، وويندي تشعر بالضعف، تسلقا صخرة مارونرز وأغشي عليهما واحدًا تلو الآخر والماء يرتفع حولهما على نحو خطير.

جذبت حورية ماء شقية ويندي من إصبع قدمها محاولةً جرها إلى الماء، فلما شعر بيتر بأنها تنزلق منه استيقظ في الوقت المناسب ليجذبها ويعيدها إلى مكانها.

قال بيتر لويندي: «الصخرة تنكمش، ستختفي في وقت قصير.»

فصاحت ويندي: «لنذهب إذن، يمكننا أن نسبح أو نطير مبتعدين عن هنا.»

فأجاب بيتر: «لا أستطيع القيام بأي من ذلك؛ أنا مصاب، اذهبي أنت.»

لكن تعب ويندي الشديد حال بين ذلك، فوضعت هي وبيتر يديهما على عينيهما ليحجبا عنهما مشهد المياه الآخذة في الارتفاع وتأهبا للموت.

لكن عندئذ لامس شيء ما ساق بيتر. كان شيئًا خفيفًا كالريشة، بدا وكأنه يسأل: «هل بإمكاني المساعدة؟»

يا له من حظ سعيد! كان هذا ذيل طائرة ورقية صنعها مايكل قبل أيام وأضاعتها الرياح. أمسك بيتر به ثم ربطه حول ويندي.

فصاحت هي: «الآن اربطه حولك.»

فقال: «لا تستطيع الطائرة أن تحمل كلينا، لقد حاول مايكل وكيرلي ذلك.»

فتشبثت به ويندي رافضة الرحيل من دونه، لكنه دفعها بعيدًا عن الصخرة، فطارت بعيدًا وصار هو وحده في البحيرة.

انكمشت الصخرة شيئًا فشيئًا، وأخذت حوريات الماء في مناشدة القمر بصوت حزين. تخوف بيتر من الهلاك شأنه شأن أي صبي آخر، لكن سرعان ما تحول خوفه إلى حماس، فقال: «سيكون الموت مغامرة مشوقة إلى أبعد الحدود.»

ثم خيم السكون على البحيرة حول بيتر أكثر فأكثر، فسمع حوريات الماء وهن يودعن بعضهن بعضًا قبل الخلود إلى النوم، ويغلقن أبواب كهوفهن المبنية من الشعاب المرجانية وصوت الماء وهو يقرقر بنهم أثناء ارتفاعه ليأكل من الصخرة، ثم رأى شيئًا ما يطفو على سطح الماء، لقد حسبه ورقة أو ربما جزءًا من طائرة مايكل الورقية، لكنه عندما تابعه بنظره أدرك أنه يتحرك بغريزة لا تتحرك بها قطعة ورق، بدا أن الورقة تتصارع مع المد بدلًا من مسايرته وحسب، لذا وجد بيتر نفسه يشجع الورقة.

في واقع الأمر، كانت الورقة هي طائر نيفر الذي ظل جالسًا على عشه الطافي. حاول الطائر جاهدًا أن يصل إلى بيتر، مع أنه أغاظه في الماضي، إلا أنه أصدر أيضًا أوامر بعدم التعرض لعشه، لذا قرر الطائر — ربما لأنه كان فوق كل شيء أمًّا — أن يعرض عشه للخطر لينقذ بيتر.

نادى الطائر: «اسبح إلى العش، تعبي الشديد يمنعني من التجديف حتى الوصول إليك.»

لم يكن بيتر يتحدث لغة الطيور، لذا لم يفهم، ولم يستطع حتى وهو مشارف على الموت أن يتحلى بالصبر.

فسأل على نحو فظ: «لماذا تبطبط؟ لا أفهم كلمة مما تقوله.»

فقال الطائر: «لم أر قط في حياتي كهذا!» وحاول مخاطبة بيتر مجددًا.

فقال بيتر: «هذا ينطبق عليك أنت أيضًا، أيًّا كان ما قلته لتوك.»

تذكر الطائر أن بيتر ليس إلا طفلًا، فالتقط نفسًا عميقًا ودفع عشه للمرة الأخيرة مجدفًا به نحو الصخرة، فلما بلغها طار تاركًا خلفه بيضه ليفسح لبيتر.

فلما فهم بيتر أخيرًا مقصده، لوح له بيده شاكرًا، لكنه عندما نظر إلى الأسفل لم يجد مساحة كافية بالعش لكليهما ولبيضتي الطائر.

فحمل البيض، فغطا الطائر عينيه بريشه خوفًا مما قد يفعله بيتر.

إلى جانب بيتر على الصخرة كانت هناك قبعة كبيرة عريضة ذات قماش مضاد للماء، خلفها ستاركي، فوضع بيتر البيض فيها ودفعها لتطفو. فهبط عليها الطائر وهو يصيح بسعادة واستقر فوق بيضه.

أما بيتر فجلس فوق عش طائر نيفر القديم ولوح له مودعًا ثم دفع العش تاركًا الصخرة، وعاد هو ووينديي إلى الكهف في نفس الوقت تقريبًا، هو عاد في عشه وهي عادت على الطائرة الورقية.

كم ابتهج الكل بعودتهما! استمر الحفل إلى أن انتبهت ويندي إلى أن الوقت قد تأخر للغاية وأخبرت الجميع أنهم تجاوزوا موعد نومهم منذ وقت طويل.

حاول الصبية المماطلة وأصروا على أنهم مصابون وبحاجة إلى ضمادات وأربطة لكن ويندي لم تقبل أيًّا من هذه الحجج وأودعتهم الفراش.

الفصل الحادي عشر

الأسرة السعيدة

ذات ليلة صارت فيما بعد تعرف بأنها «أجمل الليالي» تظاهر الأطفال بتناول العشاء، لكن جوعهم للأسف كان حقيقيًّا، لذا أحدثوا جلبة وأساءوا السلوك.

فصرخت ويندي في آخر الأمر: «سكوت!»؛ فهي بدورها كانت جائعة ومتعكرة المزاج، من ثم سألت سلايتلي: «هل فرغ طبقك يا سلايتلي؟»

فنظر الأخير إلى الطبق الذي تظاهر بوجوده ثم قال: «ليس تمامًا يا أماه.»

وقال نيبز: «إنه لم يتناول قضمة واحدة من جزرته.»

فرفع جون يده قائلًا: «بما أن بيتر ليس هنا، فهل يمكنني أن أجلس مكانه؟»

فأجابت ويندي التي تعودت أن تشير إلى بيتر على أنه والد الأطفال: «تجلس مكان والدك؟ لا.»

فتذمر جون قائلًا: «إنه ليس والدنا الحقيقي.»

أراد توتلز بدوره أن يشترك في اللعبة فقال: «هل بإمكاني أن أصبح الأب؟»

فقالت ويندي: «لا.»

فسأل: «إذن هل بإمكاني أن أكون الطفل الأصغر؟»

فقال مايكل الذي أودعته ويندي في السلة المريحة التي ينام بها: «أنا الأصغر.»

فاغتم سلايتلي.

وقال أحد الصبية: «سلايتلي يضع مرفقة على المائدة.»

فقال آخر: «التوءمان تناولا الحلوى قبل الخضار.»

فقال ثالث: «كيرلي يأكل الزبد والعسل كله.»

فقال رابع: «نيبز يأكل وفمه ممتلئ.»

ألا تشبه تلك حياة الأسرة العادية بالضبط؟ بعد أن غُسلت الأطباق التي تخيلها الأطفال، جلست ويندي بجانب النيران تخيط جوارب بها ثقوب كبيرة فيما لعب الصبية حولها. كانت سعيدة للغاية بأسرتها الصغيرة المتآلفة لكن ثمة ما كان ينقصها.

فجأة تناهى إلى سمع ويندي صوت خطوات فوق الكهف.

فقالت: «هذه خطوات بيتر، حيوا والدكم عند باب المنزل يا أطفال.»

فدخل بيتر الكهف بهبوط الشجرة الخاصة به وركض الأطفال إليه في سعادة. كان قد جلب لهم هدايا وجوز بندق — من التمساح — في الوقت المناسب لويندي. فعل هذا بتعقب التمساح إلى أن عرف كم الساعة.

قالت ويندي: «أنت تسرف في تدليلنا يا بيتر.»

وصاح التوءم: «نريد أن نرقص.»

فقال بيتر الذي كان مزاجه طربًا: «افعلا هذا.»

فقال الصبية: «ارقص أنت وماما أيضًا.»

فقالت ويندي: «تعال يا بيتر. اذهبوا يا أطفال لترتدوا مناماتكم.»

وفيما ركض الصبية لعمل ذلك، تشارك بيتر وويندي لحظة صمت.

قال بيتر وهو يدفئ قدميه بجوار النيران: «الحياة رائعة، أليس كذلك؟ حياتي أنا وأنت والصغار؟»

فوافقته ويندي الرأي قائلة: «أعتقد أن كيرلي له أنفك.»

فقال بيتر: «ومايكل يشبهك.»

ثم بدا عليه فجأة الخوف.

وسأل: «ويندي، نحن نمثل الآن، ليس إلا، أليس كذلك؟ أنا لست والدهم بالفعل، أليس كذلك؟»

فتأملته ويندي بضع ثوان.

ثم قالت في آخر الأمر: «إنها تمثيلية.»

فصاح بيتر: «حمدًا لله. لا يمكنني أن أصف لك كم أشعرني سماع هذا بالارتياح! كنت سأشعر بأنني مسن للغاية إن كنت والدهم.»

فسألته ويندي: «وما هو شعورك حيالي؟»

فطرف جفنا بيتر، وكأنه لم يفهم سؤالها بالضبط.

فتنهدت هي وذهبت لتجلس في الطرف الآخر من الغرفة وهي توليه ظهرها. في هذه اللحظة خرج الصبية وغنوا ورقصوا لبيتر وويندي وهم يرتدون مناماتهم، فلما فرغوا

من الرقص، خلدوا إلى النوم للاستماع لقصة قبل النوم التي تحكيها ويندي، وهي قصة أحبوها حبًّا شديدًا، أما بيتر فقد كرهها. كان في العادة يغادر الغرفة أو يغطي أذنيه بيديه عندما تقصها ويندي، لكنه في تلك الليلية مكث ليستمع إليها.

بدأت ويندي القصة قائلةً: «يحكى أنه كان هناك سيد فاضل.»

فقال كيرلي: «أود أن تكون هناك سيدة أيضًا.»

وقال نيبز: «وأنا أريد أن يكون هناك فأر أبيض.»

فقالت ويندي: «صه، حسنًا، كانت هناك سيدة أيضًا، وكان اسمهما السيد والسيدة دارلينج.»

فانتفض بيتر في الطرف الآخر من الغرفة.

وقال جون: «مهلًا أنا أعرفهما.»

وقال مايكل: «وأنا أيضًا.» إلا أنه لم يكن واثقًا من كلامه.

فتابعت ويندي كلامها قائلة: «كان السيد والسيدة دارلينج متزوجين ولديهما ثلاثة ....»

فصاح نيبز آملًا: «ثلاثة فئران بيضاء؟»

فقالت ويندي: بل ثلاثة أطفال، وكانت لديهم حاضنة أطفال تدعى نانا، لكن يومًا ما غضب السيد دارلينج من نانا وقيدها في باحة المنزل، فطار الأطفال الثلاثة إلى نيفرلاند.»

فقال نيبز: «هذه قصة رائعة.»

فقالت ويندي: «تخيلوا كم حزن الأب والأم عندما غادرهما أطفالهما.»

فقال الصبية في حزن مصطنع: «الوالدان المسكينان.»

ثم قال أحد التوءمين مبتهجًا: «إنها قصة حزينة للغاية.»

فقالت ويندي: «إن كنتم تعلمون مدى قوة حب الأم، فلن تقلقوا.»

ثم أتى أكثر جزء يكرهه بيتر من القصة.

قالت ويندي: «الأم تركت نافذة حجرة الأطفال مفتوحة كي يطير الأطفال عائدين إليها يومًا ما.» ثم أغمضت ويندي عينيها وقالت: «ألا تتخيلون هذا، هل بإمكانكم أن تتخيلوا هذا المشهد السعيد.» «عندما يطير الأطفال في آخر الأمر عائدين إلى المنزل.»

صدر من الطرف الذي يجلس فيه بيتر من الغرفة آهة خافتة ولكن مسموعة.

فسألت ويندي: «هل تشعر بالألم يا بيتر؟»

فأجابها: «لا، ولكنك مخطئة بشأن الأمهات.» ثم التقط نفسًا عميقًا وقال: «قبل الآن بوقت طويل ظننت أن أمي أيضًا ستترك نافذة غرفتي مفتوحة من أجلي، لذا ظللت غائبًا عن المنزل ولعبت، لكنني عندما طرت عائدًا إلى هناك، وجدت النافذة مغلقة. لقد نسيتني تمامًا، وكان هناك صبي آخر ينام في فراشي.»

فسألت ويندي في قلق: «هل هذه الحقيقة أم أنك تتظاهر بذلك.»

لم يكن بيتر متأكدًا، لكن ما قاله أثار قلق الأطفال جميعًا حتى إنهم جميعًا ظنوا أن الأمهات على هذه الشاكلة.

فصاح جون: «لنعد إلى البيت فورًا يا ويندي. قد يكون الوقت تأخر وأغلقت أمنا النافذة.»

فقالت ويندي وهي تمسك بأخويها: «أجل.» لقد تخوفت للغاية من أن تكون النافذة مغلقة حتى إنها لم تفكر فيما قد يشعر به بيتر وسألته: «بيتر هل بإمكانك أن تعيدنا؟»

فأجاب بلا مبالاة وكأنها قد طلبت منه أن يناولها بعض البندق: «إن كنت تودين هذا.» فهو في النهاية لم يكن ليهتم بها إن لم تهتم هي به.

انزعج الصبية من مغادرة أمهم لهم فأحاطوا بها على نحو مخيف: «لن نتركك تذهبين. سنبقيك سجينة.»

فصاحت ويندي: «ساعدني يا توتلز.» إذ كانت تعلم أنه من تلجأ إليه رغم أنه كان أسخف الصبية.

فوقف توتلز بينها وبين سائر الصبية وقال «سيتعين عليكم مجابهتي أولًا.»

فقال بيتر: «لن نحتجز فتيات هنا قسرًا. بما أن الطيران يتعبك للغاية فسأطلب من الهنود إرشادك في طريقك بين الغابات، ثم ستقودك تينك لعبور البحر.»

فقالت ويندي: «أشكرك يا بيتر.» ثم التفتت إلى الصبية التائهين وقالت لهم: «تعالوا معنا. أنا واثقة من أن والدي سيتبنيانكم.»

كانت تقصد بدعوتها بيتر في المقام الأول، لكن الصبية جميعهم قفزوا فرحين.

ثم سألوا بيتر متوسلين: «هل بإمكاننا أن نذهب معهم يا بيتر.»

فأجاب في مرارة: «إن أردتم هذا.» فأسرع الصبية بحزم أغراضهم، أما هو فظل ساكنًا.

فقالت له ويندي بصوت خفيض: «اذهب لحزم أغراضك يا بيتر.»

فأجاب: «لن أذهب.» وليثبت لها أنه لا يبالي تقافز في أرجاء الغرفة وهو يغني.

فقالت له ويندي متوسلة: «لكن بإمكاننا العثور على والدتك.»

فأجابها: «لا أحب الأمهات! لن يخبرنني إلا بأن أنضج وأن أقلع عن المرح.»

شهد الصبية الآخرون هذه المحادثة في توتر. لن يذهب بيتر؟ إذن ماذا سيفعلون؟ أما زال بإمكانهم الذهاب؟ هل سيرغبون في ذلك بعد الآن؟

وقال بيتر: «والآن، لا أريد جلبةً لا داعي لها، لا وداع يملؤه العويل. سعدت بلقائك يا ويندي.» ومد يده ليصافحها بتهذيب.

فسألته: «هل ستعنى بنفسك؟»

فأجاب: «نعم، تينكر بيل هل أنت مستعدة؟»

فخرجت تينك من الكهف وهي تتذمر لأنها كرهت مساعدة ويندي، ولكن الفتاة على الأقل سترحل أخيرًا.

قال بيتر: «غادروا إذن.»

لكن عندئذ سمعوا صوت صدام؛ هاجم القراصنة الهنود وألغيت رحلة العودة إلى المنزل، الآن على الأقل.

الفصل الثاني عشر

هوك في غاية السعادة

كان هجوم القراصنة مفاجئًا إلى أقصى حد. حطم هوك كل القواعد التي تعود القراصنة والهنود اتباعها عند القتال؛ فلم يهاجم في الوقت أو المكان المسموح بهما، من هنا كان الهنود كافةً تقريبًا قد أصيبوا مع انتهاء المعركة، ولم يفر منهم سالمًا إلا تايجر ليلي.

ولما فرغ القراصنة من قتال الهنود لم يستطيعوا الوقوف ساكنين، فهم رغم كل شيء لم يأتوا من أجل الهنود. كان الهنود مجرد عقبة عليهم أن يتخلصوا منها كي يحققوا مرادهم وما أرادوه هو القبض على الصبية التائهين ووينديي وبيتر أولًا وآخرًا.

كان بيتر فتى صغيرًا جدًّا، حتى إنه لا يمكن تصور كيف يمكنه أن يبث كل تلك الكراهية في قلب هوك، حتى إن كان قد رمى بيده للتمساح، لكن ثمة ما أثار سخط هوك في شخص بيتر. لم تكن تلك شجاعة بيتر أو جاذبيته، بل كان غروره وثقته المطلقة في ذاته وهي سمة يتمتع بها الكثير من الأطفال لكن أغلب الكبار يفقدونها تمامًا، لعل هوك بدوره فقد جزءًا من ثقته بذاته ويحاول أن يستعيده.

لكن كيف سيهبط القراصنة الأشجار المفرغة التي تسمح أحجامها لكل صبي من الصبية التائهين بالنزول.

كان الصبية لا يزالون يحاولون تحديد الفائز في المعركة من كهفهم تحت الأرض، فقادهم التفكير إلى أن الهنود إن فازوا بها سيقرعون طبول الطوم طوم الخاصة بهم؛ فهكذا رمزوا دائمًا إلى النصر.

سمع هوك هذا وهو يجلس على حافة إحدى الأشجار المفرغة، وتصادف أن سمي كان يجلس على طبلة طوم طوم، فأمره هوك أن يقرعها على الفور، فارتبك سمي لحظة ثم فهم الفكرة وابتسم.

دوى صوت طبول الطوم طوم: طاخ! طاخ! طاخ!

فسمع القراصنة بيتر وهو يصيح قائلًا: «طبول الطوم طوم؛ إذن فاز الهنود، لنصعد ونحتفل معهم.»

فهلل الصبية التائهون وأمر هوك رجاله باتخاذ مواقعهم والاستعداد لصعود الصبية من الأشجار.

كان أول من خرج من الأشجار هو كيرلي الذي تقاذفه القراصنة كالكرة من سيكو إلى سمي إلى ستاركي إلى بيل جوكس فنودلر.

انتزع القراصنة الصبية من الأشجار وتقاذفوهم بينهم على هذا النحو. أقل ما يوصف به هذا الأسلوب هو أنه نوع مختلف من الطيران عما تعودوه. بعدئذ كمم القراصنة الصبية وقيدوهم.

أما ويندي، فقد عاملها القراصنة على نحو مختلف، فقد كانت على الرغم من كل شيء آنسة، أو بالأحرى فتاة صغيرة وحتى القراصنة يتحلون ببعض الأخلاق؛ لما برزت من الكهف مد لها هوك ذراعه وانحنى لها في أدب شديد حتى إن وجهها احمر خجلًا، وقيدوها بأرق الحبال معتذرين لها، حريصين على ألا يؤلمها وثاقها.

أما عندما حان الوقت لتقييد سلايتلي فقد وجد القراصنة أن تكبيله سيتطلب حبالًا أكثر بكثير من التي استخدمت في تقييد ويندي وسائر الصبية، إذ اتضح أن سلايتلي كان يتناول في الآونة الأخيرة الكثير جدًّا من الوجبات الخفيفة سرًّا، بل أتى يوم في الواقع لم يستطع فيه دخول شجرته.

إذن كيف كان يدخل ويخرج من الكهف. كان قد شرع في توسيع فتحة شجرته كل ليلة أثناء نوم الصبية الآخرين.

حتى هوك سأله: «لم أنت أكبر حجمًا بكثير من الصبية الآخرين. أنت كبير وكأنك فتى ناضج تقريبًا.»

في الوقت الذي بحث فيه القراصنة عن المزيد من الحبال لتقييد بيتر واتت هوك فكرة رائعة؛ فأدرك كيف يصل إلى بيتر الذي ظل في الكهف تحت الأرض.

أشار هوك إلى سائر القراصنة باصطحاب الصبية التائهين وويندي إلى السفينة وتركه لينفذ خطته؛ فتسلل إلى شجرة سلايتلي ووجد فتحتها متسعة بما يكفي للسماح له بدخولها؛ فأرهف السمع لما يجري بالأسفل فلم يسمع صوتًا. هل كان بيتر نائمًا؟ أم كان ينتظر أسفل الشجرة بخنجر في يده؟

لم تكن هناك طريقة لاكتشاف ما يجري بالكهف سوى المحاولة، من ثم التقط هوك نفسًا عميقًا ونزل الشجرة وترك نفسه يسقط؛ فلما اصطدم بالأرض، انحنى لحظة

منتظرًا أن تتكيف عيناه مع ظلمة الكهف الموجود تحت الأرض، وأخيرًا بدأت الأشياء تتضح له؛ فرأى الفراش الضخم في أحد أركان الكهف ورأى بيتر نائمًا عليه.

هذه المرة لم يكن بيتر يتظاهر، لم يدر بما يجري من حوله بالأعلى، وظن أن الهنود قد ربحوا المعركة وأن الصبية صعدوا إلى أعلى للاحتفال معهم.

لقد سعد بانتصار الهنود، لكن الصبية كانوا سيتركونه، لذا لم يشعر بأنه يود الاحتفال. لقد تظاهر بأنه لا يحفل بذلك، إلا أنه شعر بالحزن الشديد، ولما شعر بالحزن، أحس بالنعاس، وكان يوم ذاك بحاجة شديدة إلى النوم حتى إنه لم يحلم.

عثر هوك على بيتر في هذه الحالة؛ مغتمًّا نائمًا نومًا عميقًا خاليًا من الأحلام؛ فوقف عند الفراش ونظر إليه، فأشفق عليه بعض الشيء، فبيتر كان مع كل هذا طفلًا، وهوك لم يكن شريرًا تمامًا.

لكن بعدئذ ابتسم بيتر في نومه — لعله كان يحلم بالرغم من كل هذا — وبدت ابتسامته لهوك واثقة جدًّا إلى حد أثار غيظ هوك مجددًا.

لمح هوك زجاجة ماء على المنضدة الصغيرة التي تجاور فراش بيتر فأدرك ما عليه فعله بالضبط. كان يحمل معه على الدوام زجاجة سم تحسبًا لأسره. فأخرج الزجاجة من جيبه وأضاف بضعة قطرات منها إلى الماء الذي يشرب منه بيتر. سيرشف بيتر بعضًا من الماء فيسقط صريعًا.

نظر هوك إلى بيتر للمرة الأخيرة شاعرًا بالرضا، ثم تسلق شجرة سلايتلي، وما إن صعد إلى سطح الأرض، حتى أمال قبعة القائد التي يرتديها على رأسه بأناقة، ولف عباءته الداكنة حول نفسه على نحو درامي ثم غادر خلسةً.

الفصل الثالث عشر

خطر وشيك

نام بيتر وقتًا طويلًا حتى أيقظه صوت طرقات سريعة خفيفة على باب شجرته؛ فلما فتح عينيه وجد الكهف لا يزال مظلمًا، فتحسس سيفه وسأل: «من هناك؟»

لم يلق جوابًا سوى دقة أخرى.

فقال: «قلت من هناك؟»

لكن لم يكن هناك إلا الصمت مجددًا.

شعر بيتر بالخوف، لكن تسلل إلى نفسه أيضًا شعور بالحماس، إذ عشق المغامرات، لا سيما تلك التي يجابه فيها المخاطر. كان قلبه يخفق بسرعة، مع هذا قال: «لن أفتح الباب إلا إن تكلمت.»

فأجابه زائره أخيرًا بصوت جرس عذب: «أدخلني يا بيتر.»

كانت هذه تينكر بيل! فتح بيتر لها الباب بسرعة فطارت إلى داخل الكهف محمرة الوجه وقد تلوث رداؤها الجميل بالوحل.

أخبرت تينكر بيل بيتر بأن القراصنة قد أسروا الأطفال ووينديي ويحتجزونهم الآن في سفينتهم.

فصاح بيتر وهو يهب لأخذ أسلحته: «علي أن أنقذها.»

لكنه قرر أولًا أن يرشف بعض الماء الذي تركته ويندي بجوار فراشه، فمد يده ليمسك بالزجاجة.

فصاحت تينك لأنها سمعت هوك يتمتم بما فعله وهو يسارع بمغادرة الغابة: «لا تفعل هذا؛ إنها مسمومة.»

فقال بيتر: «ماذا؟ كيف؟ من سممها؟»

فأجابت: «هوك.»

– «لا تكوني سخيفة، كيف استطاع هوك أن ينزل إلى هنا؟»

– «لا أعلم، لكنه فعل هذا.»

كان بيتر عنيدًا وعطشًا، لذا رفع الزجاجة ليشرب منها بأي حال، فطارت تينكر بيل بسرعة بين شفتيه والكوب ورشفت بعضًا من الماء بدلًا منه.

فاعترض بيتر قائلًا: «هذا الماء لي.»

فلم تجب تينكر بيل التي أخذت تدور في الهواء شاعرة بالدوار بعد أن شربت السم.

فقال بيتر وقد تسلل الخوف فجأة إلى نفسه: «تينك؟»

فأجابته بصوت ضعيف: «كان عليك أن تصغي إلي.»

فقال بيتر: «آه، لم جازفت بحياتك من أجلي يا تينك؟»

كان الوهن قد سرى إلى جناحيها، لكنها استطاعت أن تهبط برشاقة على كتف بيتر وقرصت أنفه بحنان للمرة الأخيرة، ثم همست في أذنه: «لأنني أحبك أيها الغبي السخيف.» ثم طارت بوهن إلى كهفها الصغير وألقت بجسدها على فراشها.

فجثا بيتر على ركبتيه بجانب جسدها النحيف في أسى ورأسه تملأ حجرتها كلها تقريبًا، وبدأ ضوء تينك يخبو. كان بيتر يعلم أنه إن انطفأ ستموت تينك.

فقال باكيًا: «آه يا تينك. ماذا عساي أن أفعل. أحتاج إليك. أرجوك لا تتركيني.»

فقالت تينك لاهثة: «أعتقد أنني قد أصبح بحال جيدة مجددًا إن آمن الأطفال بوجود الجنيات.»

لكن لم يكن هناك أطفال بالكهف! فنهض بيتر وصرخ مناديًا كل أطفال الكون؛ كل الصبية والفتيات الذين قد يحلمون الآن بنيفرلاند ويرتدون مناماتهم وينامون آمنين على فرشهم.

صاح بيتر سائلًا: «هل تؤمنون؟» فدوى صوته في كل أنحاء العالم واعتدلت تينك في وهن في جلستها وأرهفت السمع لتعرف مصيرها فسمعت هي وبيتر بعض الأصوات لكنهما لم يكونا واثقين من أنها الجواب.

فقال بيتر: «إن كنتم تؤمنون بالجنيات، فصفقوا بأيدكم. لا تدعوا تينك تموت.»

هذه المرة سمع بيتر وتينك الجواب، صفق الكثير من الأطفال. بعض الأشقياء الأشرار منهم صفروا، لكن أغلبهم صفق إلى أن توقف الصفيق فجأة بعد أن أسكتته الأمهات اللائي ساورهن القلق حيال أطفالهن فهرعن إلى غرفة نومهم لاكتشاف سبب هذه الضوضاء.

لكن هذا القدر من الصفيق كان كافيًا. نجت تينكر بيل! وبعدما عادت إلى طبيعتها لم تفكر حتى في شكر الأطفال الذين آمنوا بها، لكنها أرادت الانتقام من هؤلاء الذين صفروا.

قال بيتر: «علينا الآن أن ننقذ ويندي.»

آه لو كان لبعض التصفيق هذا المفعول السحري أيضًا.

فقالت تينكر بيل متجهمة: «أجل، أجل، علينا دائمًا أن نفكر في ويندي.»

كانت السماء ملبدة بالغيوم هذه الليلة والجو لم يكن مناسبًا للطيران. من ثم شق بيتر طريقه سيرًا على الأرض كالهنود. جذب انتباهه الهدوء الغريب الذي خيم على الجزيرة، وكأنها ما زالت في صدمة من أثر المعركة الأخيرة.

بحث بيتر أثناء سيره عن أشياء قد يتركها الصبية خلفهم؛ فقد دربهم على ترك علامات إن أسروا؛ فكان سلايتلي على سبيل المثال يترك علامة على الأشجار، وكيرلي كان يسقط حبًّا، أما ويندي فكانت تترك خلفها منديلها.

لكن بيتر لم يجد شيئًا.

فأقسم قسمًا غليظًا: «هذه المرة إما أنا أو هوك.»

الفصل الرابع عشر

سفينة القراصنة

توارت سفينة جولي روجر في الماء كتمساح يتربص بفريسته، وجلس القراصنة على سطحها يلعبون الورق أو يغفون قليلًا وهواء الليل البارد يملأه الضباب. أما هوك فلم يستطع اللعب أو النوم. لقد ذرع سطح السفينة جيئة وذهابًا في حيرة، إلا أنه لم يكن حزينًا؛ فبالرغم من كل هذا تخلص من بيتر بان ولن يمضي وقت طويل قبل أن يجبر الصبية على القفز من السفينة لملاقاة حتفهم، إلا أن سعادة هوك لم تكتمل لسبب ما.

كان كالسيد دارلينج يحرص على بعض الأمور؛ مثل الأخلاقيات الأرستقراطية وعادات الطبقات الاجتماعية الراقية، الأمر الذي أسماه بأصول اللياقة، كما أنه اهتم كثيرًا بآراء الناس به، لا سيما آراء من يتمتعون بأصول اللياقة.

وكان يتساءل كلما أقدم على فعل ما أو رغب في شيء ما إن كان هذا يتماشى مع أصول اللياقة، بل وأحيانًا ما تخوف من أن تتنافى مبالغته في الاهتمام بأصول اللياقة مع أصول اللياقة.

لكن هوك لم يكن تعيسًا وحسب بل كان أيضًا وحيدًا، وقد آلمه هذا مع أنه من الصعب تصديق ذلك. لم يكن لديه أطفال يحبونه، من العجيب أن يزعجه هذا لكن هذه هي الحقيقة.

حسد هوك سمي نوعًا ما؛ فسمي كان أقل القراصنة هيبة، مع هذا أحبه الأطفال، حتى إن مايكل جرب ارتداء نظارته. كان هوك يشتعل غضبًا عندما يخطر له أن الأطفال يفضلون سمي عليه، لذا قرر أن يتخلص من الأطفال نهائيًّا.

فصاح: «هل الأطفال مقيدون بحيث لا يستطيعون الطيران؟»

فأجابه القراصنة: «نعم، نعم.»

فقال: «إذن ارفعوهم بالرافعة.»

أوتي بالأطفال إلى سطح السفينة ليمثلوا أمام هوك.

فقال لهم: «سيقفز ستة منكم من سطح السفينة ليلقوا حتفهم الليلة، لكنني أريد توظيف خادمين على السفينة. من منكم سيكون خادمًا لي؟ من منكم سيتقدم للعمل لدي؟»

فتقدم توتلز وقال: «أنا يا سيدي، لكن أعتقد أن أمي سترفض أن أصبح قرصانًا. هل ستقبل والدتك بذلك يا سلايتلي؟»

فأجاب سلايتلي: «لا أعتقد هذا.»

وافقه التوءمان وسائر الصبية الرأي. لم تكن والدة أي منهم ستقبل بذلك.

فصاح هوك: «كفى!» ثم أشار إلى جون وقال: «أنت! يبدو أنك تتمتع ببعض الشجاعة. هل تود أن تصبح قرصانًا؟»

لطالما حلم جون في قرارة نفسه بأن يصبح قرصانًا، بل إنه انتقى لنفسه اسم قرصان هو: «جاك ذو اليد الحمراء»؛ فأقر بذلك بصوت منخفض لهوك.

فقال هوك: «عجبًا! هذا اسم جيد بالفعل.»

فسأل مايكل: «ماذا ستسميني إن انضممت إلى طاقمك؟»

فأجاب هوك: «جو ذو اللحية السوداء!»

راق لمايكل الاسم.

فسأل جون: «وهل سنظل رعايا صالحين لدى ملك إنجلترا؟»

فأجاب هوك: «كلا! سيتعين عليكم أن تقسموا قائلين: يسقط الملك!»

فقال جون آسفًا: «آه. إذن انس الأمر.» إذ لم يكن بمقدوره أن يتخلى عن إنجلترا.

فصاح هوك بصوت هادر: إذن ستقفز من السفينة أنت أيضًا لتلقى حتفك.

شحبت وجوه الصبية وهم يشاهدون جوكس وسيسكو يعدون لوح الخشب الذي سيسيرون عليه قبل أن يسقطوا في الماء، لكنهم حاولوا التظاهر بالشجاعة، لا سيما عندما أُتي بويندي إلى سطح السفينة.

كانت ويندي هي من تحلى بالشجاعة بين الصبية، فبرزت من أحد الطوابق السفلية بالسفينة مقطبة الوجه والغضب بادٍ عليها.

فسألها هوك بأدب: «هل أنت مستعدة لمشاهدة أطفالك يقفزون لملاقاة حتفهم؟ هل هناك كلمة أخيرة تودين توجيهها لهم؟»

فأجابت ويندي بصوت مرتفع واضح: «نعم، أنا أحمل رسالة من والداتهن الفعليات وهي أملهن في أن يموت أولادهن ميتة الشجعان، مرفوعي الرأس، كمواطنين إنجليزيين صالحين.»

فانتصب الصبية في وقفتهم بعض الشيء، محاولين التحلي بالشجاعة والقيام بآخر عمل لهم من أجل ويندي وأمهاتهم.

فصاح هوك: «قيدها بسارية السفينة.» فأطاعه سمي الذي همس لويندي قائلًا: «سأنقذك إن وعدت بأن تكوني أمًّا لي.»

فأجابته ويندي بازدراء: «أفضل ألا يكون لدي أطفال على الإطلاق.» مع أنه كان عليها أن تقر بأن سمي كان ألطف القراصنة.

حاول الصبية التحلي بالشجاعة وهم يوضعون على اللوح الخشبي. كانوا في نهاية المطاف مجرد صبية صغار، لذا لم يستطيعوا أن يمنعوا أنفسهم من الارتعاد والارتجاف خوفًا.

أدارت ويندي رأسها إذ لم تستطع النظر إلى هذا المشهد. فخطا هوك خطوة نحوها. لقد أرادها أن تشاهد الأطفال وهم يهبطون من حافة الألواح الخشبية، إلا أنه لم يستطع التأثير عليها على الإطلاق، ولم ينجح في انتزاع توسل منها بالإبقاء على الصبية، بل سمع بدلًا من ذلك صوت ساعة تدق. فأدرك أنه صوت دقات الساعة الرهيب الذي يخرج من التمساح.

تعلقت أعين الجميع فجأة بهوك. مشهد هذا القرصان الشجاع وهو يتجمد تقريبًا من الخوف مع اقتراب صوت الدقات يكاد يوصف بأنه محزن، حتى خطافه تسمر في مكانه وكأنه بدوره كان خائفًا.

سقط هوك على الأرض وزحف قدر استطاعته بعيدًا عن الصوت.

وقال متوسلًا: «خبئوني.» فاحتشد القراصنة في حزن حوله في منتصف السفينة.

ونظر الصبية التائهون إلى جانب القارب بحثًا عن التمساح، لكنهم وجدوا ما أذهلهم؛ لم يكن التمساح يتقدم، بل بيتر!

فأشار إليهم بيتر بألا يظهروا ما يدل على ذلك، وظل يتسلق السفينة وهو يقلد صوت الساعة.

الفصل الخامس عشر

هذه المرة إما هوك أو أنا

تحدث الأمور الغريبة كثيرًا وتفوتنا ملاحظتها. كانت هذه هي الحال عندما قلد بيتر صوت الساعة. مر بيتر في طريقه إلى سفينة القراصنة قبل بضع دقائق بالتمساح ولاحظ أنه لم تعد تصدر منه ضوضاء. فأدرك بعد تأمله لحظة أن الساعة التي ابتلعها قد توقفت على الأرجح عن العمل أخيرًا.

كان بيتر يعلم أن الحيوانات الضارية بالجزيرة تخشى التمساح وتبتعد لدى سماع صوت دقات الساعة، من ثم بدأ في تقليد صوت دقات الساعة دون حتى أن يفكر في ذلك كي يعبر الغابة بدون مجابهة مشاكل؛ فسمعه التمساح وأخذ يتعقبه، ربما لأنه افتقد صوت دقات الساعة.

سيطرت فكرة واحدة على رأس بيتر وهو يسبح إلى سفينة القراصنة مقلدًا صوت الساعة: «هذه المرة إما هوك أو أنا» لن ينجو من الموت إلا أحدهما هذه المرة.

لمح أحد القراصنة بيتر وهو يتسلق أحد جانبي السفينة، لكن قبل أن يصيح وضع بيتر يده على فمه، وأمسك به سائر الصبية بسرعة وألقوه عن ظهر السفينة في الماء ليصدر صوت اصطدام طفيف بالماء.

كان سائر القراصنة آنذاك ينظرون من الجانب الآخر من السفينة بحثًا عن التمساح، فتسلل بيتر على أطراف أصابعه إلى كابينة بطابق سفلي من السفينة.

قال سمي: «أعتقد أن التمساح قد ذهب.»

فصاح الكابتين هوك وقد تعكر مزاجه أكثر لأن الصبية رأوه وهو مذعور: «إذن لنشرب نخب اللوح الذي سيقفز من عليه جوني.»

وبدأ ينشد: «هوبا هوبا! سر على اللوح الهزاز حتى يهبط
وتهبط معه في البحر المظلم بالأسفل.»

ثم توقف عن الغناء.

وقال في تهذيب: «الآن أخبروني، هل ترغبون في تناول وجبة خفيفة قبل المغادرة؟ ثمة بعض الشطائر في الكابينة.»

فصاح الصبية: «كلا!» لا لأنهم لم يكونوا جائعين، بل لأن بيتر كان مختبئًا بالكابينة.

فقال هوك: «لا أستطيع أن أرسلكم إلى أعماق البحار ببطون خاوية. أليس كذلك؟ اذهب وأحضر الشطائر يا جوكس.»

فقال جوكس: «سمعًا وطاعة.» ودخل الكابينة.

فصدرت صيحة مريعة من الكابينة في غضون ثوان، تبعتها صيحة ديك غريبة حيرت القراصنة، أما الصبية فقد فهموا معناها تمامًا.

فسأل هوك: «ما هذه الجلبة؟ أهذا طائر؟ اذهبوا للاطمئنان على بيل جوكس.»

فدخل القرصان الإيطالي سيكو الكابينة ليلقي نظرة فشحب وجهه وقال: «لقد اختفى بيل جوكس.»

فسأل سائر القراصنة: «اختفى؟»

أجاب سيكو: «لا أستطيع الرؤية؛ فالمكان مظلم للغاية. ثمة شيء يصيح كالديك.»

فقال هوك: «اذهب وأحضره.»

فقال سيكو باكيًا: «لا تجعلني أفعل ذلك.» لكنه لما رأى هوك يلوح بخطافه أطاعه.

صدرت صيحة أخرى في غضون ثوان تبعها المزيد من صياح الديك.

فقال هوك: «من يأتيني بهذا الديك؟» ثم سأل: «هل تتطوع لذلك يا ستاركي؟ يبدو أن خطافي يرى هذا.»

فقال ستاركي بصوت خفيض: «أفضل أن أتراجع عن ذلك، ووافقه سائر القراصنة الرأي متمتمين.

فقال هوك: «هل أنا بصدد تمرد بقيادة ستاركي؟ ثم مد ذراعه نحو ستاركي قائلًا: أتود مصافحة يدي يا ستاركي؟

فتلفت ستاركي حوله بحثًا عمن يسانده لكنه لم يجد معينًا فتقدم هوك نحوه وعيناه تبرقان؛ فقفز ستاركي على مدفع القراصنة وزحف مرتجفًا بسرعة إلى حافته وقذف بنفسه في البحر.

فقال هوك: «لا بأس، سأحضر هذا الديك بنفسي.»

لكنه بعد دقيقة خرج مترنحًا بدون مصباحه.

وقال مرتجفًا: «شيء ما أطفأ مصباحي ولا أجد سيكو.»

كان القراصنة يؤمنون بالخرافات وقد فاق الأمر احتمالهم.

من ثم تمتم أحدهم: «هذه السفينة ملعونة.»

فوافقه الآخرون الرأي قائلين: «إنها مسكونة.»

فقهقه مايكل ضاحكًا لأنه كان يعلم أن بيتر هو من بالداخل، فلاحظ هوك هذا وجاءته فكرة.

قال هوك: «افتحوا باب الكابينة وادفعوا الصبية إلى الداخل. إن قتلوا الطائر؛ فهذا سيخدمنا أما إن قتلهم فلن يضرنا هذا شيئًا؛ نحن سنقتلهم بأي حال.»

تظاهر الصبية بالبكاء والمقاومة والقراصنة يدفعونهم إلى الداخل.

وقال هوك: «لنصغي الآن.» فتجمع القراصنة كلهم حول الباب.

عثر بيتر في هذه الأثناء على المفتاح الذي يفك أغلال الصبية الذين أخذوا يبحثون عن أسلحة، فيما تسلل بيتر من كوة في الناحية المقابلة من السفينة وفك قيود ويندي.

كان بإمكانهما أن يطيرا مغادرين السفينة لكن بيتر أقسم على أن يموت هوك أو هو هذه المرة؛ فطلب من ويندي الاختباء مع الصبية ولف نفسه بالعباءة التي كانت تلفها حولها ووقف مكانها عند سارية السفينة.

ثم التقط نفسًا عميقًا وصاح كالديك.

فزع القراصنة وتساءلوا: هل قتل الديك جميع الصبية؟ وهل سيقتلهم بعدئذ؟

قال هوك: «يا رجال، لعل الفتاة الموجودة على متن السفينة هي السبب في حظنا العاثر. لنتخلص منها، ونرى إن كان حظنا سيتغير.»

فصاح القراصنة: «لنُلقِها من على ظهر السفينة.» وهرعوا نحو الجسد الذي تلفه العباءة.

وقالوا: «ليس هناك من يستطيع إنقاذك الآن.»

فتمتم بيتر بصوت غريب: «ثمة شخص واحد يستطيع ذلك.»

قال هذا وهو يلقي بالعباءة كاشفًا عن وجهه، ففطن الجميع فجأة إلى ما يجري.

صاح هوك: «أمسكوا به!» إلا أنه لم يقل هذا بثقة؛ فقد شعر أن بيتر أوشك على أن يتفوق عليه من جديد، وهذا فاق احتماله وحطم قلبه الغليظ.

صاح بيتر: «قتال.»

فاندفع الصبية خارجين من الكابينة واندلعت معركة شرسة بينهم وبين القراصنة. القراصنة كانوا أقوى، إلا أن الصبية كانوا أذكى؛ إذ انقسموا إلى فرق زوجية لقتالهم،

فقفز بعض القراصنة من على ظهر السفينة، وفر بعضهم واختبأ البعض الآخر، حتى لم يتبق إلا هوك.

فحاصره الصبية.

لكن هوك ظل شجاعًا قويًّا حتى وهو بمفرده، وظل يبعد الصبية عنه مستخدمًا خطافه فقط؛ إذ رفع أحد الصبية بخطافه واستخدمه كدرع لحماية نفسه.

فقفز بيتر إلى دائرة القتال.

وقال: «ابتعدوا! إنه لي!»

تبادل بيتر وهوك النظرات وقتًا طويلًا.

ثم قال هوك: «إذن أنت وراء كل هذا.»

فصاح بيتر قائلًا: «نعم أنا.»

فقال هوك: «أيها الفتى المغرور المتغطرس! استعد لأن تلقى حتفك.»

وقال بيتر: «وأنت أيضًا.»

تبعت هذا مبارزة حامية بالسيوف قاتل فيها هوك وبيتر بشجاعة، وفي النهاية انقض هوك لينال من بيتر بخطافه الحديدي، لكن الأخير انحنى وانقض عليه بسيفه مخترقًا ضلوعه.

حدق هوك في الجرح الذي أُصيب به ذاهلًا. كان الدم الوحيد الذي لا يطيق رؤيته — كما تذكر — هو دمه، فأوقع سيفه.

هنا صاح الصبية: «الآن!» حان الوقت للإجهاز على هوك! واندفعوا لكن بيتر رفع ذراعه مشيرًا لهم بالتوقف.

ثم قال لهوك: التقط سيفك. فالتقطه هوك وسأل بيتر: «من أنت؟ كيف أمكنك أن تهزمني؟ لا يعقل أن تكون مجرد فتى عادي.»

فقال بيتر: «أنا لست فتى عاديًّا، أنا الصبا، أنا المرح، أنا طائر صغير فر لتوه من عشه، وفوق كل هذا أنا فتى عادل.»

فضاقت عينا هوك وقال: «كفى! لنعُدْ إلى القتال!»

وهوى بسيفه بقوة، أي شخص آخر يبارزه كان سيصاب، لكن بيتر انحنى وكأن الرياح تؤمن له بالحماية، فتدفعه إلى المسافة المناسبة بعيدًا عن سيف هوك، هنا وهناك ....

يأس هوك ففر من المعركة ثم عاد بقنبلة يدوية.

وصاح: «ستنفجر هذه السفينة في غضون دقيقتين.»

فما كان من بيتر إلا أن التقط القنبلة وألقاها من على ظهر السفينة.

كره هوك هدوء وشجاعة بيتر. هل يعقل أن بيتر ... كان ... يتبع أصول اللياقة؟

لم يستطع هوك احتمال التفكير في هذا. دنا الصبية منه لكنه كان لا يراهم تقريبًا؛ فعقله انشغل بالتفكير في أمر آخر؛ في أيامه بالمدرسة عندما علم لأول مرة بأصول اللياقة.

رأى هوك بيتر يتقدم نحوه بسيفه فاستدار ووقف عند حافة السفينة ينظر إلى البحر؛ فوجد التمساح ينتظره.

فركله بيتر ليلقيه من على ظهر السفينة. أدرك هوك وهو يسقط أن بيتر لم يتحر هنا أصول اللياقة فأسعده هذا، ولما شعر بأنه الأسمى، ارتضى بالذهاب إلى التمساح.

بعدما انتهت المعركة، خرجت ويندي من كابينة السفينة بالطابق السفلي، ورقص الصبية حولها وأشاروا لها إلى كل بقعة قاتلوا فيها.

فقالت ويندي: «أجل، أجل. أنتم في غاية الشجاعة. لكن موعد نومكم قد فات. لنذهب إلى حجرات نوم القراصنة — مع أنها غير مرتبة — كي ننال قسطًا من الراحة.»

خلد جميع الصبية إلى النوم عدا بيتر، الذي نام على سطح السفينة بجانب مدفع القراصنة، وجلست ويندي إلى جانبه طوال الوقت، تمسح على رأسه لتحميه من الكوابيس.

الفصل السادس عشر

العودة إلى المنزل

استيقظ الجميع مبكرًا صباح اليوم التالي. كانت رحلة العودة إلى المنزل طويلة وأمواج البحر كانت عاتية للغاية؛ لذا كانت رحلتهم بطيئة.

صارت ملابس القراصنة ببعض التعديلات البسيطة التي أجرتها ويندي تناسب أحجام الصبية بالضبط، فارتدوا سراويل قصتها ويندي من منطقة الركبتين، وقبعات أنيقة ورقعات أعين، وقطبوا وجوههم.

كان بيتر بالطبع هو ربان السفينة أما نيبز وجون فكانا وكيلي الربان الرئيسيين. لم يتدرب أي من الصبية على إبحار سفن القراصنة، لكنهم تظاهروا بذلك، وهذا يكفي في نيفرلاند. عمل الصبية على تثبيت شراع ساريات السفينة وأحبالها وكل أدوات الإبحار، وأثناء ذلك غنوا وهتفوا بحماس حتى وصلوا بالسفينة إلى عرض البحر فأرخوا شرعها واتجهوا صوب إنجلترا. حان وقت العودة إلى البيت.

قرر بيتر أن يبحروا حتى جزر آزور ويستكملوا الرحلة بعدها بالطيران؛ فوقف عند دفة السفينة وأخذ يخاطب طاقمه.

صاح قائلًا: «أيها الحثالة! أيها الجراء القذرة! لن يكون هناك تمرد على سفينتي وإلا ....»

كان الصبية يدركون أنه يتظاهر فقط بأنه قرصان، أما هو فلم يكن دائمًا قادرًا على الفصل بين الجد والتمثيل حتى إنه ارتدى ملابس هوك القديمة، من ثم ضحك الصبية في توتر.

لكن لنترك الصبية على السفينة ونسافر إلى منزل آل دارلينج. لقد تجاهلناه للأسف طوال هذا الوقت، لكن السيدة دارلينج لم تكن لتود أن نصب اهتمامنا عليها إن كنا نستطيع بدلًا من ذلك أن نصبه على أطفالها.

إن كان هؤلاء الأطفال الأشقياء قد تركوا فرشهم غير مرتبة وغرفتهم غير نظيفة عندما غفل عنهم والديهم وخرجوا من المنزل فهم يستحقون العقاب.

لكن هذه ليست المسألة هنا بالطبع؛ فالأطفال يعتمدون على تلك الأحوال ليخوضوا المغامرات.

لم يختلف شيء منذ مغادرتهم للمنزل غير أن نانا لم تعد مقيدة؛ فالسيد دارلينج كان يقر بخطئه عندما يخطئ، من ثم دعا نانا إلى العودة إلى المنزل ما إن طار منه الأطفال، ومكثت نانا هناك

غير أن السيد دارلينج قام بأغرب ما يمكن؛ سار على أربعة أقدام وزحف إلى بيت نانا بنفسه. توسلت إليه السيدة دارلينج أن يخرج من البيت لكنه قال: «ليس قبل أن يعود الأطفال.»

كان بيت نانا يُحمل كل صباح وبداخله السيد دارلينج إلى مكتبه ثم يعاد إلى المنزل ليلًا. رأى السيد دارلينج أن هذا هو العقاب الذي يستحقه.

وهو عقاب شديد إن أخذنا في الاعتبار الأهمية الكبيرة التي يوليها السيد دارلينج لآراء الناس فيه؛ فقد ضحكوا عليه وأشاروا إليه ساخرين وحدقوا فيه حتى صار يعرف بـ«دارلينج الذي يسكن بيت الجراء».

لكن سرعان ما تجلى جمال التضحية التي يقوم بها السيد دارلينج، ولما علم الناس بالسبب الذي دفعه إلى أن يحبس نفسه في بيت نانا بدءوا في تعقبه لا للضحك عليه بل لمديحه، وطلبت منه الفتيات توقيعه، ودعته فئات المجتمع المختلفة لتناول العشاء معها — في بيت الجراء طبعًا وهو يرتدي ربطة عنقه السوداء — حتى قال عنوان صحيفة ما: أصول اللياقة الجديدة. حظي السيد دارلينج بما كان يريده دائمًا لكنه لم يسعد بمكانته الجديدة في المجتمع.

شعرت السيدة دارلينج بدورها بالحزن خلال تلك الفترة. كانت تحلم بأطفالها إن تسنى لها النوم وهي جالسة على كرسيها بجانب المدفأة. والليلة حدث الأمر نفسه.

لنهمس الليلة في أذنها بأن أطفالها في طريقهم إلى المنزل، لكن ربما من الأفضل ألا نفعل ذلك؛ ها قد هبت مستيقظة تنادي عليهم.

كان الهواء باردًا في المنزل، لكن السيد والسيدة دارلينج لم يجرآ أبدًا على غلق نافذة حجرة الأطفال، كان يجب أن تظل مفتوحة لهم دائمًا.

لكنهما لم يدركا حتى هذه اللحظة أن هناك شخصًا ما عند النافذة. إنه بيتر بان الذي سبق سائر الأطفال مع تينكر بيل.

تمتم بيتر عندما رأى النافذة: «مفتوحة. كنت أعلم ذلك.»

فابتكر خطة أخيرة. سيطير إلى داخل المنزل بهدوء كي لا يوقظ السيد دارلينج في بيت نانا، ويغلق النافذة ثم يتسلل خارجًا من المنزل من الباب الأمامي، بهذا ستظن ويندي والأطفال عندما يصلون أن والديهم قد نسياهم فيعودون معه إلى نيفرلاند.

رأى أن هذه فكرة رائعة؛ فهو لم يهتم بمشاعر ويندي أو والدتها، لم يعبأ إلا بما أراد؛ فالأطفال أحيانًا ما يكونون بهذه الأنانية.

لكنه مر بالسيدة دارلينج وهي تنام بجانب المدفأة وهو يخرج من المنزل مجددًا، ولما رأى دموعها على وجهها السمين شعر بالذنب للمرة الأولى.

فقفز وغنى وصنع تعابير وجهٍ مضحكة لكنه لم يستطع أن يخرج دموع السيدة دارلينج من رأسه، مع أنه حاول جاهدًا. ربما كان مع كل هذا قد بدأ ينضج نوعًا ما.

فزفر قائلًا: «آه، لا بأس. تعالي يا تينك.» وفتح النافذة وطار بعيدًا.

بعد بضع دقائق، وجد الأطفال نافذة حجرتهم مفتوحة، فهبطوا على أرض حجرة نومهم، لكن مايكل لم يتذكر الحجرة.

وقال: «هذا المكان يبدو مألوفًا.»

فقال جون: «بالطبع هو كذلك أيها السخيف. إنها حجرة نومنا.»

صاحت ويندي: «ها هو بيت نانا.» وهرعوا جميعًا إلى البيت لينظروا بداخله، فلم يجدوا به نانا وإنما وجدوا رجلًا.

قالت ويندي: «هذا أبي.»

فتوسل مايكل قائلًا: «دعاني أرى أبًا.» لكنه لم يذكر والده، فقال وقد شعر ببعض الإحباط: «القراصنة أكبر حجمًا.» من الجيد أن السيد دارلينج كان نائمًا ولم يسمع ابنه يقول هذا وإلا كان قلبه سينفطر.

سأل جون شاعرًا بالحيرة: «هل كان ينام دائمًا في بيت جراء؟»

لم تستطع ويندي أن تتذكر، لكن عندئذ سمعوا صوت عزف بيانو بالطابق السفلي من المنزل.

فشهقت ويندي قائلة: «أماه!»

فسألها مايكل: «ألست أمنا؟»

فقالت ويندي: «آه.» لعلهم انتظروا وقتًا طويلًا كي يعودوا إلى المنزل.

فقال جون «لننزل إلى الطابق السفلي ونفاجئها، يمكننا أن نصيح بووووو.»

فقالت ويندي: «لنكن ألطف قليلًا. نحن ندين لها بالكثير. لنعد إلى أسرتنا وهي ستأتي لتجدنا.»

وهذا هو ما فعلوه بالضبط.

الفصل السابع عشر

النضج والوداع

دلفت السيدة دارلينج صباح اليوم التالي إلى حجرة أطفالها، فوجدتهم ينامون نومًا عميقًا وكأنهم لم يغادروا المنزل قط.

ظنت لحظة أنها تخيلت من الأساس أنهم غادروا، كانت ستشك في ذلك لولا أنها وجدت السيد دارلينج نائمًا في بيت نانا.

كان الأطفال بالطبع يتظاهرون فقط بأنهم نائمون، فلما لم يستطيعوا كبح حماسهم أكثر من ذلك، قفزوا من أسرتهم صارخين، وركضوا لاحتضان والدتهم وتقبيلها.

فلما سمع السيد دارلينج هذه الجلبة زحف ناعسًا إلى خارج بيت الجراء وركضت نانا أيضًا إلى الغرفة.

شاهد لم شمل الأسرة من على إحدى الأشجار خارج المنزل صبي صغير يدعى بيتر بان. سالت من عينه دمعه، وشعر أنه لن يجد مثل تلك السعادة قط.

أما الصبية التائهون، فقد خبأتهم ويندي في الطابق السفلي من المنزل، لكنها استدعتهم الآن وجعلتهم يقفون صفًّا أمام والدتها، إلا أنها تمنت لو أنهم لم يظلوا مرتدين زي القراصنة.

قال القراصنة الصغار: «أرجوك تبنينا!»

قال نيبز: «لن نأكل الكثير.»

فصاحت السيدة دارلينج على الفور: «بالطبع سنتبناكم!» لكن عندئذ عبس السيد دارلينج.

وقال: «هؤلاء الصبية كثيرون.»

كان في الواقع يتمنى لو أن السيدة دارلينج لم تجب بدون أن تسأله عن رأيه؛ فقال: «أتمنى فقط ألا أعامل وكأنني نكرة في منزلي.»

فصاح توتلز: «نحن لا نرى أنك كذلك.» ووافقه الجميع الرأي.

فهمست السيدة دارلينج لزوجها قائلة: «أنت لي كل شيء.»

فسعد السيد دارلينج بذلك وقال إنه يعتقد أنه بالإمكان تدبير مكان للصبية بطريقة ما.

أما بيتر، فظل ينتظر خارج المنزل.

رأته ويندي فسارت إلى النافذة.

فقال لها بلا مبالاة وكأنه لم يرها إلا مصادفةً: «آه، أهلًا.»

قالت له ويندي: «بيتر، أرجوك ادخل، سيتبناك والدي أنت أيضًا.»

فأتت السيدة دارلينج ووقفت خلف ابنتها وقالت: «هذا صحيح.»

فقال بيتر: «سترسلينني إلى المدرسة وتتوقعين مني أن أنضج. هل تنكرين هذا.»

لكن السيدة دارلينج لم تستطع إنكار هذا.

فصاح بيتر: «كنت أعلم هذا. ابتعدي عني يا سيدتي. لن يمسك بي أحد ويجبرني على أن أكبر. سأذهب إلى نيفرلاند.»

فقالت ويندي: «لكنني سأفتقدك للغاية. لقد أعدت جون ومايكل، لعل هذا يكفي. ربما علي أن أعود معك.»

فالتفتت إلى والدتها.

فقالت السيدة دارلينج على الفور: «لا! لا!»

فقالت ويندي: «لكنه بحاجة إلى أمٍّ.»

فقالت السيدة دارلينج: «وأنت أيضًا يا عزيزتي.»

رأت السيدة دارلينج أن قرارها آلم بيتر وويندي، لذا وافقت على أن تعود ويندي إلى نيفرلاند بعد عام من الآن، وتمضي أسبوعًا لتساعده في تنظيف منزله في الربيع.

ففرح بيتر بهذا؛ إذ كان لا يشعر بمرور الوقت على أي حال؛ وودع ويندي وقال إنه سيعود الربيع القادم.

التحق الصبية بالمدرسة وتعلموا الكثير من الأشياء، لكنهم في نهاية الأمر نسوا كيف يطيرون. زعموا أن السبب هو أنهم ما عادوا يتدربون، لكن الواقع هو أنهم ما عادوا يؤمنون بأنهم يستطيعون ذلك، كما لم يعد معهم بعض غبار الجنيات لمساعدتهم.

تشبث مايكل باعتقاده بأنه يستطيع الطيران لوقت أطول من الآخرين، وعاد بيتر كما وعد مع ظهور أول علامات الربيع.

كانت ويندي قد كبرت منذ أن رآها بيتر آخر مرة؛ لذا تخوفت من أن يلحظ هذا، لكنه لم ينتبه للأمر، وفكر وتحدث كالعادة عن نفسه بالدرجة الأولى. تطلعت ويندي إلى أن يعيشا معًا بخيالهما مغامراتهما القديمة، لكن بيتر خاض الكثير من المغامرات الجديدة منذ مغامرته معها، من ثم لم يتذكر تلك المغامرات.

بل سألها: «من القبطان هوك؟»

فقالت له: «ألا تذكر أنك قتلته وأنقذت حياتنا؟»

فأجابها: «أنا أنسى هذه المغامرات عندما تنتهي.»

انتظرت ويندي ربيع العام التالي قدوم بيتر، لكنه لم يأت.

قال مايكل: «لعله مريض. لعلنا تخيلناه وحسب.»

فبكت ويندي عندما سمعت هذا. هل يعقل ذلك؟

لكن العام التالي، أتى بيتر كما تقرر، لم يدرك أن عامًا قد فاته، وكانت هذه هي المرة الأخيرة التي ترى فيها بنت تدعى ويندي صبيًّا يدعى بيتر بان.

بعد عدة أعوام، كانت ويندي قد تزوجت وعاشت في البيت الذي كبرت فيه، وأصبح كل الصبية التائهين رجالًا. أنجبت ويندي فتاةً صغيرة تدعى جين أحبت أن تسأل أسئلة عن بيتر.

أحيانًا تذكرت ويندي بيتر على نحو واهٍ، فقد نسيت الكثير من التفاصيل عنه، لذا سعدت بالتحدث إلى الآخرين عنه قبل أن تنساه تمامًا.

قالت لها جين ذات مرة: «أماه أنا أعرف كل شيء عن بيتر.»

فرفعت ويندي بصرها إلى ابنتها في ذهول وسألت: «حقًّا.»

فأجابتها جين: «أنا أيضًا أعرفه.»

لم تشك ويندي في هذا وابتسمت في حزن؛ فكل الأطفال يعرفون بيتر بان.

يوم ما كانت ويندي تجلس على فراش جين حيث أودعت لتوها الأخيرة، فطار بيتر بان عبر نافذة الغرفة المفتوحة وهبط على الأرض. لم يتغير فيه شيء على الإطلاق.

قال بيتر وكأن وقتًا لم يمض على الإطلاق: «أهلًا يا ويندي. أين جون ومايكل؟»

ثم خفض بصره إلى جين وقال: «من هذه التي تنام؟»

فأجابته ويندي برقة: «بيتر، هذه ابنتي ويندي. إن صح اعتقادي، فقد التقيتما من قبل في أحلامها.»

لم ينظر بيتر في عينيها، فقد رفض الاعتراف بأنها كبرت.

ثم قال في صرامة: «لا أدري عما تتحدثين. حان التنظيف من أجل الربيع وقد وعدت بالقدوم.»

فقالت: «لا أستطيع هذا. لا أذكر كيف أطير.»

فقال: «سأعلمك من جديد.»

بدا أنه على وشك البكاء، فنهضت ويندي لتحتضنه، لكنها لما فعلت هذا بدت أطول منه بكثير، بدت فتاة ناضجة إلى حد واضح حتى إن عينا بيتر اتسعتا في ارتياع وشهق.

فقالت هي: «هذا صحيح يا بيتر. لقد كبرت.»

فقال: «لقد وعدت بأنك لن تفعلي هذا.»

قالت: «لم أستطع منع نفسي. أنا الآن زوجة وأم.»

فشرع بيتر في البكاء، فهبطت ويندي درج المنزل لتجلب له بعض اللبن الدافئ، لكن أثناء غيابها، أيقظ بكاؤه جين، فتعرفت على بيتر على الفور. فلما عادت ويندي، وجدت بيتر يضحك من جديد ويطير هو وجين في أرجاء الغرفة ضاحكين.

قالت جين: «أماه، إنه بحاجة لأم.»

فقالت ويندي في حزن: «أعلم هذا.»

فجذب بيتر جين معه إلى النافذة وذهبت الأخيرة معه برغبتها.

قالت ويندي: «لا!» ووقفت بين بيتر وجين كما وقفت أمها بينها وبينه من قبل.

فتوسلت إليها جين قائلة: «سنغيب لتنظيف المنزل من أجل الربيع وحسب.»

فأغمضت ويندي عينيها وهمست: «حسنًا.» وشاهدت — كما ستشاهد جين من بعدها وابنة جين من بعدها — ابنتها وهي تطير في السماء إلى نيفرلاند مبتعدةً إلى أن بدا حجمها كالنجمة الصغيرة.

فأدارت ويندي ظهرها إلى النافذة وهمست لبيتر وجين ولنا: «تصبحون على خير.»